11
العدد الحادي عشر
صفر 1437 هـ
نوفمبر 2015 م

كانو الثقافية

مجلة ثقافية نصف سنوية - تصدرها جائزة يوسف بن أحمد كانو

جائزة كانو..

رؤية واعدة..
وانطلاقة جديدة

الطب وتعريبه
في مواجهة تغريبه

دور وسائل الإعلام في تحقيق التنمية المستدامة

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات
Contents

06 فكر وثقافة
كلمة رئيس التحرير
خالد محمد كانو

08 فكر وثقافة
التجديد في الفكر الإسلامي والحاجة لمعاهدة وستالفيا جديدة
د.محمد نعمان جلال

14 فكر وثقافة
الناس فيما يدعون معادن
د. عبداللطيف جاسم كانو

16 دراسات أدبية
(طوارق فيكيروا والحضور العربي)
أ.د.عبدالرزاق حسين

24 دراسات أدبية
نحو مئوية التعليم النظامي في البحرين
د. إبراهيم عبدالله مطر

34 دراسات أدبية
التحولات التاريخية للمكتبات الوقفية الإسلامية
د.محمد مرسي محمد مرسي

60 علوم طبية
الطب وتعريبه في مواجهة تغريبه
ا.د. فيصل عبداللطيف الناصر

64 علوم طبية
هشاشة العظام.. العلة الصامتة
د. أميرة محمد بنداري

78 دراسات اقتصادية
دور وسائل الإعلام في تحقيق التنمية المستدامة
د. رضا عبد الواجد أمين

88 الأدب
غوستاف مالر: أضربُ الجدار برأسي، فينهار الجدار
عبدالقادر عقيل

92 الأدب
عندما يُتوّج الحلم
د. نبيلة زباري

94 الأدب
فاطمة تعيش الحلم
محمد عباس علي

96 إضاءات
الشيخ خالد بن عبد الله يرعى حفل تكريم الفائزين بجائزة يوسف بن أحمد كانو للدورة الثامنة
مبارك سعد العطوي

www.ybakanooaward.com

رئيس التحرير
خالد بن محمد كانو

نائب رئيس التحرير
د. عبد اللطيف بن جاسم كانو

مدير التحرير
مبارك بن سعد العطوي

جميع المراسلات بإسم رئيس التحرير
ص.ب: 1170
المنامة – مملكة البحرين
هاتف: 17226153(+973)
فاكس: 17226154(+973)
البريد الإلكتروني
kanooawd@batelco.com.bh

جرافيكس
الرافد ميديا ذ.م.م
Al Rafid Media W.L.L
alrafidmedia@gmail.com
+973 39139122

المؤسسة العربية للطباعة والنشر
رقم التسجيل: SYKCO 786

مجلة علمية ثقافية شاملة تأسست عام 1429هـ - 2008م
تصدر عن جائزة يوسف بن أحمد كانو - بمملكة البحرين
العدد الحادي عشر - صفر 1437هـ - نوفمبر 2015م

قواعــد النشر

- غايتنا المساهمة في تنمية الإبداع والثقافة والتقدم العلمي.
- المجلة ترحب بالبحوث والدراسات في جميع المجالات العلمية والأدبية والاقتصادية.
- وتحتفي أيضاً بالموضوعات المتعلقة بالطب ومجالات التقنية والمعلومات إلى جانب الدراسات المستقبلية.
- الخرائط التي تنشر بالمجلة توضيحية وليست مرجعاً للحدود الدولية.
- البيانات والإحصاءات تقريبية.
- المجلة لا تلتزم بإعادة المواد التي تتلقاها للنشر.
- ما ينشر يعبر عن رأي الكاتب ولا يعبر عن رأي المجلة.
- يجوز الاقتباس مما ينشر شرط الإشارة إلى المجلة ورقم العدد وتاريخ الإصدار، وإلا اعتبر خرقًا لقانون الملكية الفكرية.
- يرسل الكاتب عنوانه كاملاً، وسيرته الذاتية إذا كان يكتب لأول مرة في هذه المجلة.

المجلة ترحب بكل نقد وتوجيه واقتراح

- يسعدنا أن نتلقى رسائلكم بواسطة البريد أو على البريد الإلكتروني.

وللجميع شكرنا وتقديرنا،،،

هيئة التحرير

دور وسائل الإعلام في تحقيق التنمية المستدامة 80

هشاشة العظام.. العلة الصامتة 65

عندمـا يُتوّج الحلم 92

خالد محمد كانو
رئيس التحرير

جائزة كانو.. رؤية واعدة.. وانطلاقة جديدة

على مدى أكثر من خمسة عشر عاما استطاعت جائزة كانو أن تخط لنفسها خطا مائزا بين المؤسسات العلمية والثقافية على مستوى الوطن العربي، وضمَّت إلى رصيد إنجازاتها الكثير على مدى ثماني دورات متتالية، كرَّمت فيها العديد من العلماء والباحثين والمبدعين في مجالات المعرفة المختلفة.

وحرصًا من مجلس أمناء الجائزة على تحقيق فلسفتها الداعمة للتميز والابتكار والإنتاج العلمي والمعرفي، اعتمد المجلس رؤية جديدة لتواكب المتغيرات الإقليمية والعالمية، ولتكون منارة لتحفيز الشباب وتدعيم المبادرات العلمية الخلاقة.

فقد تم إضافة مجالات جديدة للجائزة، لتضم إلى جانب (الدراسات الإسلامية) الذي يعبر عن الهوية، مجال (الابتكار والتقنية) حتى تكون الجائزة دافعا للتميّز المبدع الذي يفيد المجتمع، ويقدّم له الحلول لإشكالياته، ويسهم في ترقيته ونمائه.

كما استحدثت الجائزة مجال (الشباب وريادة الأعمال) إيمانا منها بأن الشباب هم صناع الحاضر وبناة المستقبل، ولأنهم الطاقة الخلاقة، التي ينبغي أن توظف في خدمة المجتمع، وتحديد ملامح مستقبلٍ أفضل للحياة، بالإضافة إلى مجال (الاقتصاد والتنمية)، لكون الاقتصاد العصب المحرك لعملية التنمية، والتنمية المستدامة بالحفاظ على نقاء الطبيعة، ومواردها المتعددة.

أما المجال الخامس من مجالات الجائزة فيتعلق بـ(الرياضة واللياقة)، إذ إن الثقافة العلمية المتعلقة بهذا الجانب تعد من أهم أنواع الثقافات التي تضمن حياة صحية خالية من المنغِّصات، كما أن المجال الرياضي بمفهومه الواسع يستحوذ على اهتمام قاعدة عريضة من المجتمع، وسيتم تكريم أصحاب الأعمال ذات القيمة الرفيعة والجودة المبدعة من الناحية العلمية والاقتصادية والاجتماعية والإنسانية، والإنجازات الرائدة المتميزة كأساس للاختيار والترشيح في ثلاثة من المجالات الخمسة السابقة، يحددها مجلس الأمناء في كل دورة للجائزة.

إن جائزة يوسف بن أحمد كانو لن تكتفي بتكريم أصحاب الأعمال المتميزة في المجالات السابقة التي ربما تكون حكرًا على أصحاب الخبرات والكفاءات العالية، بل ستحاول الجائزة إشراك أكبر عدد من الشباب ضمن قائمة المستفيدين منها، حيث تم تخصيص جوائز تشجيعية للإبداع الشبابي، فضلا عن الجائزة في المجالات السابقة، وذلك بشكل دوري، حيث يتم تخصيص جائزة للشباب كل أربعة شهور لتكريم المبدعين منهم والرواد في مجال المشروعات والإنجازات الجديدة، وتقوم لجان فنية متخصصة بتحديد الفائزين وتكريمهم وفق الرؤية الجديدة التي تنظر إلى الشباب على أنهم المحرك الرئيس لقاطرة التغيير الإيجابي في أي مجتمع.

> تخصيص جوائز تشجيعية للإبداع الشبابي

إن عائلة كانو، وهي تقوم على تطوير رؤية وفلسفة هذه الجائزة من خلال رؤى أعضاء مجلس الأمناء، لتأخذ على عاتقها ما تؤمن به إيمانا يقينيا أن العلم وحده سبيل الأمم والشعوب للنهضة والنماء.

كما سيكون للجائزة إسهامات أخرى، تشكِّل إضافة إيجابية ضمن رؤيتها الجديدة.

والله الموفق.

التجديـد في الفكر الإسلامي والحاجة لمعاهدة وستفاليا جديدة

د. محمد نعمان جلال

بادئ ذي بدء يجب أن نميز بين ثلاثة أمور: الأول تجديد الفكر الديني، والثاني تجديد الشريعة الاسلامية، والثالث تجديد الدين. فتجديد الفكر الديني هو تجديد للأفكار المرتبطة بفهم وتطور كل ما يتعلق بالدين أو بعضه، باعتبار الفكر عملا بشريا وإنتاج البشر بما يتلاءم مع فهمهم وظروفهم، وتجديده يعني تجديد نظرتنا إلى المفاهيم الدينية التي تؤثر على سلوك البشر. والثاني تجديد الشريعة يعني تجديد فهم القواعد الدينية المتعلقة بالمعاملات والعبادات. وهذه القواعد لها مصدران رئيسان: هما القرآن الكريم والحديث الشريف. فالقرآن الكريم أنزله الله على نبيه وانتهى الوحي، كما انتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى. ومن ثم فإنّ النصوص أصبحت جامدة ويمكن فهمها وتفسيرها من البشر.

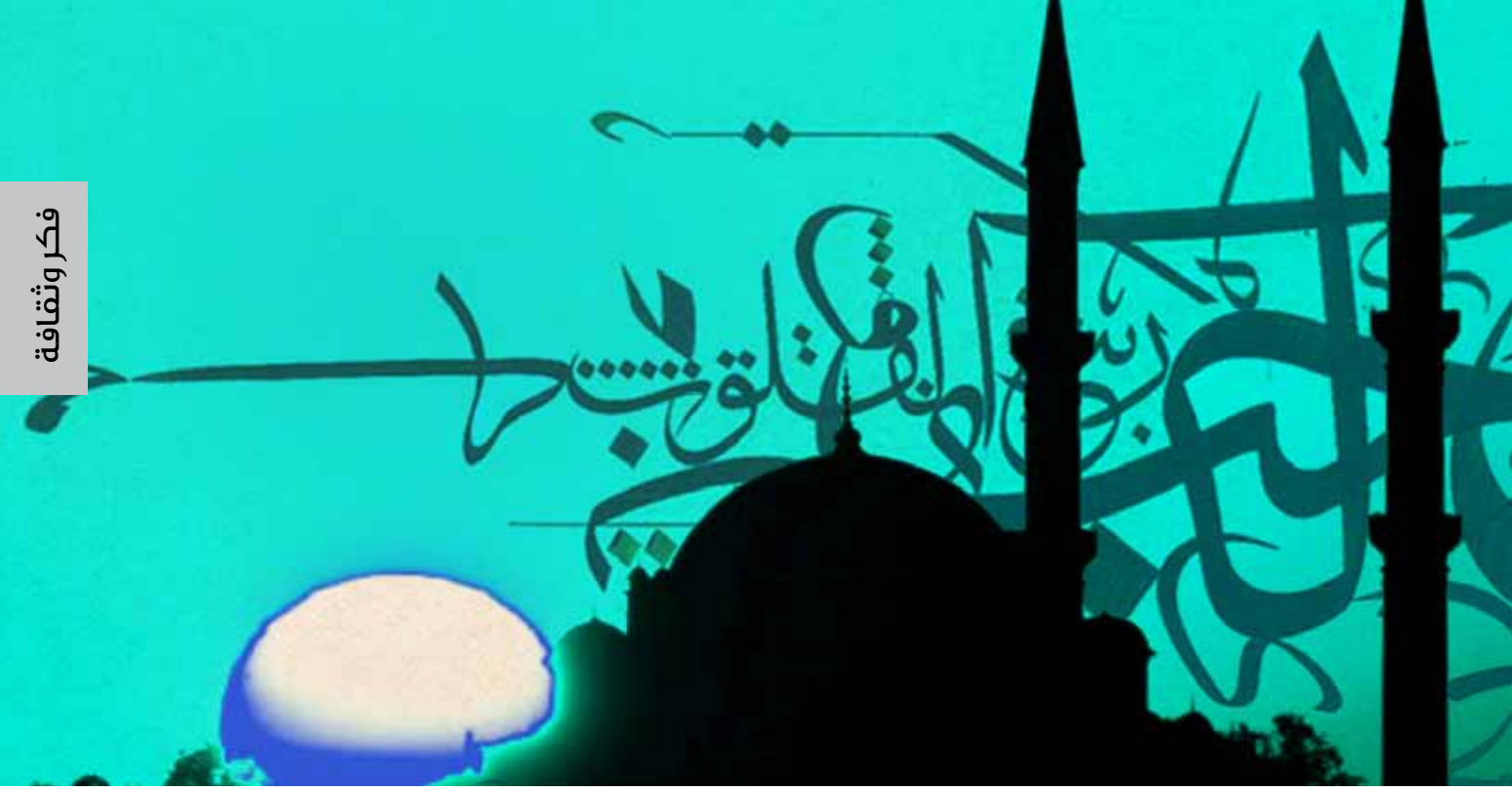

ومن ثم، فإنَّ تجديد فهمنا لهذه القواعد يتماشي مع ظروف كل مجتمع وكل مرحلة تاريخية، وهذا هو أساس الشريعة ذاتها؛ فالعلماء الأفاضل أفتوا وشرحوا فهمهم للقواعد الدينية، ومن هنا ظهر العلماء والفقهاء واختلفوا فيما بينهم في فهم تلك القواعد الدينية، وهذا اختلاف -كما قيل- هو رحمة بالبشر، ولذلك ورد القول المأثور إن الله يبعث لهذه الأمة كل مائة عام من يجدِّد لها أمر دينها، أي فهم القواعد الشريعة المرتبطة بالدين.

أما تجديد الدين فهو مفهوم خاطئ، فالدين كما سبقت الإشارة يعتمد على مصدرين رئيسين هما النصوص القرآنية وأحاديث النبي الكريم وسلوكه. وإذا كان القرآن الكريم «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه» فهو -كما ورد في الحديث الشريف- «رُفِعت الأقلام وجفَّت الصحف». أما الأحاديث الشريفة فإنها قيلت لتتناسب مع الظروف، وكذلك أدخل عليها كثير من التحريف والتشويه، كما ظهر ما أطلق عليه الأحاديث الموضوعة أو الضعيفة أو أن أحد أسانيدها غير موثوق به أو نحو ذلك. وقد وضع بعض المفكرين والسياسيين أحاديث اختلقوها لتناسب الاتجاهات السياسية التي طرأت على المجتمع. وظهر ذلك مع بروز المذاهب الفلسفية والاتجاهات السياسية. ومحصلة كل هذه الاتجاهات والاجتهادات عكست التغيّرات في المجتمعات المختلفة وأدت إلى تجديد الفكر المتعلق بالدين وتجديد فهم الشريعة وتجديد تفسير القرآن الكريم في مراحل تاريخية لتتماشى مع زيادة فهم الشعوب والمجتمعات للنصوص الدينية. وهذا هو مدار المقولة الداعية إلى تجديد الفكر الديني. ولذلك من يبحث في سلوك المسلمين والمذاهب التي تسود الآن يجد فيها اختلافا كثيرًا عمّا كان سائدا في عهد الرسول والخلفاء الراشدين، بل إن المصطلحات في القرآن الكريم نجد معانيها تغيَّرت عما كانت عليه في الماضي؛ فاللغة كائن حي يتغير بتغير الزمن مثل أي كائن حي يتطور مع تطور الشعوب والبيئة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ولعل أحد أهم وأخطر أسباب الخلافات بين الشعوب الإسلامية هو حالة الجمود التي تسيطر على الفكر الديني من ناحية وحالة التفكير العكسي بالنظر إلى الماضي بأنه كان عصرا ذهبيا

وأنه بمثابة الجنة المفقودة، وهذه مفاهيم في ذاتها خاطئة؛ فالتقدم يسير نحو الأمام، وهذا التقدم له جوانب إيجابية وأخرى سلبية، كما هو شأن العصور القديمة وما كان يسودها من محدودية الاختراعات والتفكير والإنتاج، ومن ثم حالة الرفاهية التي تعيشها المجتمعات في القرن العشرين أو القرن الحادي والعشرين لم يكن لها وجود قبل بضعة قرون خلت. وهذا في ذاته أكبر الدواعي الدافعة إلى التجديد والذي يتناول الفهم والتفسير بعيدًا عن أصول الدين وركائزه. أما ما يسمى «أصول الفقه» فهو في ذاته يحتاج إلى تفسير وتطوير؛ فلكل مجتمع ولكل عصر فقه، ولهذا ظهر ما يسمى «فقه الأولويات» و«فقه المهجر» و«فقه الضرورة». أصول هذا الفكر موجودة في الماضي ولكن فهم وتطبيق هذه الأصول يختلف باختلاف الزمان والمكان وظروف كل مجتمع وتاريخه والتحديات التي تواجهه. ولو حدث مثل هذا التجديد فإنه يمكن أن يكون مخرجًا للتخلص من كثير من الفكر والاجتهادات الدينية التي قيلت في عصور قديمة مثل الخلاف بين المذاهب الإسلامية والخلاف بين الطوائف الإسلامية التي أكبرها (السنة والشيعة والإباضية والزيدية، وما يتفرّع عن كل منها). وهذا هو المنهج الذي اتبعه الأوروبيون في معاهدة وستفاليا.

لقد عقدت معاهدة وستفاليا عام 1648 لتضع نهاية لحرب استمرت ثلاثين عاما بين الدول البروتستانتية والكاثوليكية، وأكّدت إنهاء سيطرة بابا الفاتيكان على النظام السياسي المدني وأقرَّت مبدأ السيادة المطلقة للدولة الوطنية على مواطنيها كافة، ومن أراضيها، كما وافقت على مبدأ السيادة التامة لكل دولة على أراضيها والمساواة في السيادة. وهكذا انطلقت الدول الأوروبية في معراج النهضة.

للأسف في بلاد المسلمين لم نستطع التخلص من حرب «البسوس» وحرب «داحس والغبراء» وغيرهما، التي استمرت في الجاهلية كلّ واحدة منها سنوات طوالاً، بلغت أربعين عامًا، انتهت بعدها وفي مرحلة ما بعد ظهور الإسلام ثم وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم عادت هذه الروح الجاهلية القائمة على مفهوم قبلي وعلى الثأر المستمر في دائرة مفرغة لتطحن المسلمين بانقسام لا معنى ولا مبرر له بين من أطلق عليهم الشيعة والسنة في حين أن الإسلام الصحيح لا يعرف مثل هذا الانقسام. وقد لعبت عوامل مختلفة وتصورات ذات دلالة دورها في إثارة بعض الحساسية بين الخلفاء الراشدين، وهم كما قال الإمام البوصيري في قصيدته المعروفة باسم البردة (وكلهم من رسول الله ملتمسٌ غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم) نقول إن علي بن أبي طالب عليه السلام ورضي الله عنه وكرَّم الله وجهه كان الخليفة الرابع باختيار المسلمين من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقبل توليه الخلافة كان ناصحاً أميناً للخلفاء الثلاثة الذين سبقوه حتى قال عنه عمر بن الخطاب: «لولا علي لهلك عمر». أقول إن علاقة الخلفاء الراشدين الأربعة بعضهم ببعض كانت وثيقة للغاية، وبعض الخلافات في وجهات نظرهم إزاء تفسير بعض الأحداث والمواقف كانت من قبيل الاجتهاد الذي كان قائما بينهم جميعاً، ولكنه خلاف -كما قالت العرب- لا يفسد للود قضية، وزوَّجَ عليٌّ بن أبي طالب عمرَ بن الخطاب ابنتَه أم كلثوم، ولعل ذلك خير دليل على العلاقة الطيبة بينهما، وحرص كل منهما على مودة الآخر، بل إن علي بن أبي طالب عليه السلام عيَّن محمد بن أبي بكر واليا على مصر رغم صغر سنه آنذاك، وهكذا البنات من حفيدات أبي بكر تزوجن من سلالة علي بن أبي طالب ومنهن أنجبن جعفر الصادق، كما تزوجت أخرى من محمد الباقر بن علي زين العابدين، وهكذا كان جعفر الصادق يقول إنه ينتسب إلى أبي بكر من جهتين، أما

أحد مؤتمرات التقريب بين المذاهب الإسلامية

نحن اليوم من أنصار علي بن أبي طالب أو من أنصار الخلفاء، أي من الخلفاء الآخرين، فقد أصبحت بيننا حرب شعواء ونتساءل هل نستطيع أن نغير الكون ونعيد عقارب الساعة إلى الوراء؟ ونعيد الخلافة إلى علي أو إلى الحسين بعد كل هذه السنين؟ وهل نستطيع أن ندخل أيًّا من الخلفاء السابقين الأربعة نار جهنم أو ندخلهم الجنة أو نعيدهم جميعاً إلى الحياة لكي يدلّونا على طريق الصواب. إن هذا من المستحيلات وإذا كان ذلك مستحيلا فلماذا ننطلق في حرب شعواء بدعوى مناصرة هذا الخليفة أو ذاك، ونحن لانملك من الأمر شيئاً؟ إن ذلك لشيء عجاب من المسلمين سنة وشيعة، على حَدٍّ سواء. ومن ثم فإن الدعوة إلى التخلي عن الأفكار التي لا يمكن تحقيقها والتي تجعلنا نعيش في ماضٍ لن يعود تعد ضرورة لا محيص عنها لمن يريد أن يحقق تقدما لمجتمعه ودولته ومفاهيم السيادة السياسية على الشعوب للدولة الوطنية. فالخلفاء الأربعة كانوا من خيرة رجال المسلمين، ومن صحابة النبي الكريم ومنهم من عشيرته الطاهرة وعلاقتهم ببعضهم كانت على أفضل ما تكون العلاقة، فما بالنا نحن بعد خمسة عشر قرنا نعيش قضايا الخلاف والأحقاد والصراعات التي تؤدي إلى إراقة الدماء وغرس النفوس المريضة بالكراهية تجاه الآخر. إننا نتشارك جميعا في قرآن واحد ونبي واحد وفي إله واحد وقبلة واحدة وغير ذلك من المشتركات التي هي كثيرة. ونتساءل هل وصل بنا الأمر إلى حدّ تدمير بعضنا مساجد بعض؟ وهل لو كان جميع المسلمين سنة أو جميعهم شيعة سنكون أحسن حالاً أو تكون هذه الطائفة أو تلك في عيشة هنية ورغد ويدخلون الجنة بغير حساب؟ إن القرآن الكريم قال «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة» كما قال لنبيه «إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء»، ولقد شاءت إرادة الله أن يحدث الاختلاف بين البشر، وهذه آية من آيات الله أن يكون هناك اختلاف في الألوان والألسن، أي اللغات واللهجات واختلاف الليل والنهار وهكذا، وعلينا أن ندرك أنه قدرنا، وأنَّ علينا إدارة هذا الاختلاف بالحوار وبالكلمة الطيبة، وبالتي هي أحسن حتى نخمد الفتنة في مهدها ونوقف العداء والصراع والخصام، وعلينا أن نترك حرية الدين لكل فرد، وكذلك حرية المذهب والطائفة، ونحرص على إعلاء شأن الدولة الوطنية، وسيادة كل دولة على أراضيها وعلى مواطنيها، وأن نعيش المستقبل ولا

رسم تخيلي لمعاهدة وستفاليا عام 1648 تضع نهاية حرب استمرت ثلاثين عاما بين الدول البروتستانتية والكاثوليكية

نتحجر في الماضي في دائرة من الظلامية والصراع والثأر المتبادل في حلقة مفرغة، ونتساءل أين هم حكماء الأمة وعلماؤها من الشيعة والسنة لمنع أتباعهم من التشاحن والاقتتال؟ وأن علينا أن نعلي مبدأ التعايش السلمي ونتبادل المصالح والافكار والآراء إعمالاً لقوله تعالى في سورة فصلت «وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ» (34) لو تعامل الشيعة والسنة بعضهم مع بعض بالمنطق القرآني لسادت المودة، أما إذا استمروا على الشحناء والبغضاء فسوف يقضي الله أمراً كان مفعولاً باستمرار الأحقاد والصراع. وهل يعقل أن يقتل المسلم أخاه المسلم في المسجد وهو يصلي؟ إن مثل هذه الأساليب الشنعاء والوحشية والإجرامية نقلتنا إلى مستوى دون الحيوانات التي أصبحت أكثر حكمة ورأفة ورحمة بعضها ببعض. هل من عقلانية أيها المسلمون سنة وشيعة، رحمة بأنفسكم وبنبيكم ودينكم وكتابكم وأبنائكم وعشيرتكم وأتباع مذهبكم وإخوتكم في الوطن، وأدعوكم لكي تحرصوا ألا يكون بأسكم بينكم شديدًا وأنتم تتلون الكتاب وتقرؤون قول الله تعالى: «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم» ونتساءل أين الرحمة فيما بيننا أيها المسلمون؟ احذروا (وأكررها ثلاثا) السياسيين الطموحين الساعين إلى السيطرة والتوسع، ولتكن منكم فئة يدعون إلى الحق والحوار والمصالحة والاعتدال والعقلانية، وليردد كل منكم سواء كان سنيًّا أو شيعيًّا قول الله تعالى في الحوار بين ابني آدم «لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين (28) إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين فطوَّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين» (المائدة 30-28).

لعمري إن السماء تكاد تنفطر لقتل مسلم بل لقتل أي إنسان، ولذا قال تعالى «أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا» المائدة 32. وإنه لو هدمت كل دور العبادة للسنة والشيعة، بل لو هدمت الكعبة المشرفة لكان ذلك أهون عند الله من قتل نفس واحدة.

وحقا قال النبي الكريم إن حرمة النفس أكبر عند الله من حرمة الكعبة التي شرفها الله سبحانه وتعالى. كم من مسلم قتل بيد أخيه المسلم وهو قائم يصلي في المحراب؟ هل تذكَّرَ من قام بفعلته الشنيعة هذه قول الرسول الكريم: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار». فاستفسر الصحابة من النبي عَلِمْنا القاتل فما بال المقتول؟ فردَّ عليهم النبي المبعوث رحمة للعالمين «لأنه كان حريصا على قتل صاحبه». أليس ذلك كله من تسامح الإسلام؟ إنني لا أدري أي إسلام يؤمن به هؤلاء الذين يرتكبون أعمال القتل بدم بارد وإخوتهم يصلون في المحراب؟! إننا نواجه تحديات جِسامًا في القرن الحادي والعشرين ليس من بينها قتل النفس البشرية أيًّا كانت، ولقد وصف هذا القرن بأنه قرن التسامح ونبذ العنف ونبذ الكراهية.

وحقا قال العلماء من السابقين لنتعاون فيما اتفقنا عليه وليعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه، إنني أناشد العلماء والحكماء والحكام وجميع المواطنين أن يراعوا حرمة النفس البشرية وحرمة نفس المؤمن، وألا يقوموا بالتحريض ضد الآخر، والإساءة إليه فيقوم ضعاف النفوس بارتكاب أخطر جريمة ضد البشرية، ولا حول ولأ قوة إلا بالله العلي العظيم، اللهم أهدِ قومي فإنهم لا يعلمون.

ونستخلص مما سبق أن ثمة حاجة ماسة إلى تجديد الفكر الديني من منظور مصلحة المجتمع واحتياجاته ومصالح أفراده، ولذا ورد في الأثر: «لا تجتمع أمتي علي ضلالة»، واجتماع الأمة لا يعني الإجماع الكامل، ولكن يعني مبدأ الأغلبية البرلمانية أو المجتمعية التي تستهدف مصلحة المجتمع، طالما أن الإجماع لا يتناقض بوضوح مع نصوص دينية صريحة وواضحة، وليس مع اجتهادات علماء آخرين في السلف، ولهذا كان مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان أنه ما لم يرد نص صريح من القرآن أو الحديث النبوي الصحيح أو ورد عن الصحابة، فإن ما يرد عن التابعين هو اجتهاد ورأي مبني على مقولة«هم رجال ونحن رجال»فيمكن أن نخالفهم. ولهذا قيل عن مذهب أبي حنيفة إنه مذهب أهل الرأي، أي يعتمد العقل مقياسًا، وهذا يتماشى مع صحيح الدين والدعوة القرآنية إلى إعمال العقل في آيات كثيرة.

د. عبداللطيف جاسم كانو

الناس فيما يبدعون معادن

يقول العرب كما يروي لنا التاريخ بأن "الناس معادن" والمقصود بذلك أن الناس مختلفون ومتفاوتون في كثير من الأمور وأن الشيئ الفصل بينهم في حقيقة الأمر هو مستوى الإنسان في التعامل والتعاطي مع الناس والأحداث والمواقف وما يترتب عليه وقد قدر الناس هنا بمقياس المعادن الثمينة النادرة من الذهب والجواهر بعكس النحاس والحديد وغيرها فهي من المعادن الرخيصة المتواضعة وهي أقل مقياس في ميزان المعادن وميزان القيمة المعنوية كقياس لها.

ولو نظرنا نظرة دقيقة فاحصة لأي عمل كبير نافع أو موقف متميز أو إنجاز بارز رفيع لوجدنا إنها جميعاً لا تأتي إلا من أناس وأشخاص متميزين في معدنهم من الذهب، لهم مكانتهم وإنطلاقاتهم الفكرية والحضارية، ولهم ذاتية وثوابت تختلف عن غيرهم ولهذا فإننا دائماً نقول للمفكرين والعظماء أن معدنهم أصيل لأننا نعرف ونقدر قيمة المعدن الأصيل وقيمة العمل الأصيل وكم من الناس الذين شكلوا معادن ثمينة وشخصيات أصيلة خدمت الأمة وأعطت بإمتياز وتجرد وبإخلاص ومحبة وتفاني لتطور الناس والمجتمع والحياة.

وفي البحرين العزيزة وعبر تاريخها المجيد وعبر أجيالها المتعاقبة نجد أن أبنائها هم معدنها الثمين الأصيل.. وثروتها الحقيقية المتزايدة بل المتدفقة دوماً والمثمرة بإستمرار فهذه الأرض الطيبة المعطاءة أرض خصبة.. فيها الزرع الطيب فهي لا تعطي إلا الثمار الطيبة. ولا يخرج منها إلا المعدن الأصيل الثمين.. وهو الإنسان البحريني الذي يعد ثروتها الحقيقية ومعدنها الأصيل الذي شارك ويشارك دائماً في صنع الحياة المتحضرة المتطورة.. وصناعة بالإنجازات المتميزة بالعطاء الكبير لخدمة بلده وأمته في شتى المجالات والميادين.. حتى أصبحت البحرين بإسهامات وعطاء أبنائها لؤلؤة ثمينة وجوهرة أصيلة مشرقة في عقد الخليج وتحظى بتقدير كبير مستوى العالم كله.

والمعدن الثمين لا يعرفه ولا يقدر قيمته وثمنه إلا من يملك المستوى الرفيع من الفطنة والخبرة الواسعة وبالاخص من الرجال والقيادات المميزة الرائدة من ابناء الوطن والذين تدعمهم وتقف بكل فخر وراء كل إنجازاتهم ولتثبت دائماً أن البحرين بقيادتها الحكيمة ورؤيتها الحضارية ورعايتها الطيبة مليئة دائماً بالمعدن الأصيل بحيث ترعاها وتشجعها وتدعمها وتساندها وتدفعها لأن تكون دائماً في اعلى المراتب والمستويات وما هذا بغريب عليها.

وفي الواقع أننا إذا نظرنا إلى مؤسساتنا الاقتصادية الهامة وإلى وزارات الدولة وإلى مختلف الخدمات الأساسية في القطاعين العام والخاص فإننا نرى أن البحريني قد احتل القيادية في هذه المؤسسات وقد حقق صوراً جميلة من التفوق لهذا الوطن والمكانة الرفيعة بعد العناء والمثابرة بعد حصولهم على الثقة والكفاءة التي تؤهلهم لذلك.

ويزيدنا فخراً أن نرى أن مؤسساتنا الوطنية بمختلف القطاعات تدار بأكفأ القيادات البحرينية من الذين درسوا وعملوا في الخارج واكتسبوا الخبرة والكفاءة والاعتراف من المتجمعات العربية والعالمية وهم الآن معادن وجواهر ثمينة تقود هذه المؤسسات بكل كفاءة واقتدار وهم يقدمون بصمت وبتفان يشكلون اروع الصورلهذا الوطن.

وهم كوكبة كبيرة من المتميزين الذين سطروا لنا مساحات من العطاء المميز الذي غير الكثير من مسارات الحياة بجميع مرافقها ومجالاتها الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والإنسانية لتصبح الحياة اليوم والعلوم لهذا التعامل الرائع والراقي المحتضر بين جميع البشر رغم البعد الجغرافي الهائل والاختلاف في المناهج والقيم والمبادئ وليصبح العالم قرية جميلة صغيرة متواصلة الاطراف!!

ومهما يكون من أمر فأن في البحرين العديد من تلك اللآلئ الذين يعملون بصمت وهدوء وحب وتفان يقدمون دائماً وفي كل وقت ومكان عطاءاتهم واسهاماتهم من اجل خدمة أوطانهم ويكونوا دائماً رمزاً للمعدن الثمين الذي لا يعادله إي معدن حتى لو كان ذهباً.

(طوارق فيكيروا والحضور العربي)

- (طوارق فيكيروا والحضور العربي)
- للكاتب الإسباني: ألبرتو باثكث فيكيروا
- ترجمة: د. عبدو زغبور
- الناشر: ورد للطباعة والنشر، سورية ـ دمشق
- الطبعة الأولى 2004م

من روايات الحنين الدافئ إلى المكان، والقيم، والتراث، إنّها رواية تدفعك من قمة جبلٍ عالٍ من دون أن تحذرك، أو تمسك بك، بل تتركك وحيدا تصارع النزول، ومع ذلك تتمتع أنت بهذا الهبوط المخيف وأنت تشاهد عالماً لم تره أو تألفه، فتحضن الرواية كمظلة واقية تظل تهبط بها رويداً رويداً حتى ترى غزال صياد «إنموشار» النبيل الطارقي من «كيل – تالغيموس» بطل الرواية مُحَطِّماً لقيمه، ومُحَطّماً في آنٍ واحد.

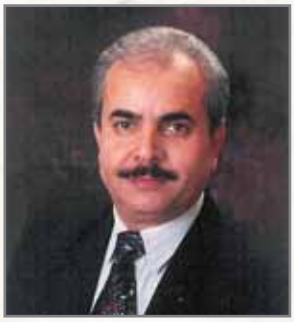

عبدالرزاق حسين

إنهـا رواية تتحدّث عن بلدٍ عربي، وعن جزء من شعب هـذا البلد، وبالذات الجزء الصحراوي، وجهل تعامل الحكومات، أو أجهزة من هذه الحكومات، مع بعض مواطنيها.

فالحكومة ممثلة بأجهزة أمنها، تلاحق مطلوباً في غاية الأهمية، هو عبدالكبير رئيس الدولة الذي أطيح به في انقلاب عسكري، وتجده عند أحد رجال الطوارق مع مرافق له، وقد دخلا ضيفين على غزال صياح صاحب الشهامة والنخوة، والمدافع العنيد عن القيم، وبخاصة قيم احترام الضيف، وهو لا يعرفهما، ولا يعرف مكانتهما، فقط هما ضيفان لهما من الواجب ما توجبه قيم القبيلة.

لكنَّ هذه المفرزة من الشرطة لم تعرف قيمة لصاحب البيت، ولا لقيَمه، ولا لضيوفه، فقتلت المرافق، واختطفت عبدالكبير، وهنا تبدأ رحلة غـزال في الدفاع عن قيم القبيلة، فيترك زوجه حبيبة فؤاده، وأولاده شغاف قلبه، وخيمته مكان أنسه، وملعب صباه، ليبدأ مغامرة يختلط فيها الخيال بالحقيقة، وتمتـزج المعرفة بالأسـطورة، وتأخذك دقة الوصف، وجمال التصوير، وروعة الأداء، لتجد شخصاً واحداً ووحيداً يخوض غمـار الصـحـراء بكل مجاهلها ومخاطرها، ليثأر ممن اعتدى على قيمه، فقتل ضيفاً، واختطف آخـر من دون أن يبدي أي اكتراث للمضيف، من هنا يتعقب القتلة، فيقتل دليـل الشـرطة، وإن كان طارقياً مثله، في مبارزة شريفة، ثم يصل إلى القائد غالب الذي أشرف على عملية اغتيال ضيفه، فيقتله، ويمضي يتتبع كلّ من له صلة؛ لمسح عار ما لحقه من أنه لم يستطع حماية ضيفه، عبر تخوم الصحراء، ولاقى من الأهـوال ما لا يستطيع أحد غير طارقي، هو غزال صياح، احتمالها، عدا عن مطاردة رجال الشرطة له، ومحاولة قتله في كلّ لحظة، إلى أن انتهى به المطاف إلى العاصمة، ليصل إلى رئيس الجمهورية فيقتله، وهو لا يعلم أنه يقتل من قام في الأصل للدفاع عنه، إذ تغيّر نظام الحكم وهو لا يدري.

فقتل الرئيس وقُتل.

الرؤية الثاقبة تستطيع حدس مضمون الرواية من صفحاتها الأولى (ص 10 ـ 11) حيث يعرض الكاتب لأسـطورة يتناقلها الـطـوارق جيلاً بعد جيل، وهـذه الأسطورة تتحدّث عن حرب جرت بين عائلتين أفنت رجالهما، وفي النهاية قامت إحدى العائلتين بأخذ طفل من أمه التي بقيت وحيدة بعد أن قضى رجالها، فتمَّ تقييدها ودفن ابنها بعيداً في الرمال، ومن شدَّة لهفتها على وحيدها قطَّعت قيودها، وأخذت تبحث عن ابنها حافرة في الرمال حتى أصابها الجنون، ولا يدري أحد ما حدث لها بعد ذلك، ولكنَّ الأسطورة تقول: إنَّ روحها مازالت في ذلك المكان تأتي في الليل تحفر بحثاً عن ابنها المفقود.

وهذه الروح هي التي أحسَّ بها بطل الرواية عندما ذهب لزيارة أخيه المريض واضطرَّ في سفره إلى النوم في تلك البقعة من الصحراء.

وخلاصة الأسطورة أنَّ الحـرب تؤدي إلى الضياع، أو الجنون، أو الموت.

فالعاطفة التي دفعت الأم إلى البحث عن ابنها لتصل إلى الجنون فالموت، هي ذاتها التي دفعت غزال صياح المدافع الفذ عن القيم الصحراوية، فالتعدي على قيمه دفعه إلى أن يضحي بكل شيء.

> الرؤية الثاقبة تستطيع حدس مضمون الرواية من صفحاتها الأولى

ولا يعني قولنـا: إنَّ هـذه الأسـطورة هي الضوء الكاشف المسلَّط على مفاصل الرواية، أنها تجعل أحداث الرواية واضحة بيِّنة، لا تحتـاج معـهـا إلـى متابعتها، لا، ولكنّـني أستطيع وصف هذه الأسطورة بالرقم السري الذي يفتح لك الباب لتدخل من خلاله، وإذا دخلت فلن تستطيع الخروج -حتى إنْ رغبت- قبل أن تصل إلى آخر سطر في الرواية.

ومع أنّني منهجياً قد حصرت قراءتي في الحضور العربي، وألزمت نفسي بعدم تجاوزه إلى الفني إلاَّ بمقدار ما يتعلّق بهذا الحضور، لا هرباً منه، ولكن حتى نتبيَّن فكرة الآخر وتصوره ورؤيته لنا نحن العرب، إلى جانب أنَّ هذه الروايات التي أقوم بقراءتها هي من الروايات العالمية التي أحـرزت شهرة عالية من خـلال مكانة أصحابها الروائية، أو حصولها على جوائز عالمية، أو كونها أكثر

الروايات مبيعاً، وكون الدخول إلى الفنّي يخرجنا عن موضوعنا الذي نذرنا هذه الدراسة له ، وعذري هنا في جملة معترضة هو أنَّ ما لفت نظري بقوة في هذه الرواية هو القدرة الفنّية الجاذبة على إبقائك في بيئة طاردة، في صحراء قاحلة حارقة لا محدودة، مرعبة ومجهولة، قاسية إلى حدّ الموت، ومدمّرة إلى حدِّ الهلاك، في هذه الصحراء وضمن ظروف بيئية شاقة، وحياة مرّة جافة، وصور مرعبة، وشظف قاس، ووسائل عيش ضئيلة، وترقّب لخطر محدق، في فضاء لانهائي، وشخصية محورية ذات بعد ذاتي، يقبض عليك الكاتب، ويبقيك في صحرائه بكل صفاتها السابقة أسيراً مقيّداً طوعاً ورغبة في اقتفاء أثر هذا المشهد العجيب، والفعل المغامر، والحدث الباهر، تواقاً إلى البقاء مع كل ما في هذه الصحراء من صور منفّرة، وحياة قاسية، ومشاهد مرعبة، تعيش ريّها وظمأها، وترقب ليلها ونهارها، وتحسّ رعبها وأنسها، وتنال من قيظها وزمهريرها، وتملأ رئتيك من نسيمها وغبارها، وعبيرها ونتنها، وتمضي مع غزال صياح تتبعه كظلّه، وهو يجوب هذه الصحراء الشاسعة، من: شرقها إلى غربها، ومن شمالها إلى جنوبها، تعبر معه الأرض الخواء التي تبتلع الداخل فيها، وتقطع معه كثبانها ورمالها، وتنام معه في سبخاتها وأوشالها، ومع ذلك تشاركه في الشرب من كرش الجمل ماءً منتناً أخضر اللون، ويدعوك إلى مائدته، فتأكل لحم جمل شارف على الموت، أنتن من طول الرحلة والجوع الهائج، بل وتحفر معه في الرمل حفرة لتنام فيها حفظاً من كل هوام الأرض، واستبقاءًا على ما تبقّى في جسمك من رطوبة، بل تتحوَّل مثله إلى حجر لا يتحرَّك منك رمش لتظلّ محتفظاً بقوتك ومائيتك، بل تصبح (قوقعة فارغة، غلاف بشري غير قادر على الإحساس أو الوجع ص198).

> التكيّف مع الصحراء خبرة وذكاء فطري وُهِبَه ابن الصحراء

حديث الصحراء هذا الذي يحكيه لنا هذا الحاكي، أو على طريقتنا (الحكواتي) الإسباني ذكّرني بحديث البحر الذي قدّمه لنا آرنست هيمنجواي في رائعته (العجوز والبحر) الذي استطاع في فضاء لامحدود أيضاً، وتحت ظروف قاسية في مواجهة خطر داهم، وبشخصية واحدة محورية هي شخصية الشيخ أو العجوز الصياد أن يربطك في قارب هذا العجوز حتى وصوله إلى الشاطئ، قد يختلف الدافع والبيئة والعرض، ولكنَّ جوانب الاتفاق في كلتا الروايتين من حيث: الشخصية المحورية، والفضاء الواسع، والأخطار المخيفة المحدقة بكلا البطلين تقرّبهما من بعضهما، ولا يعني هذا بأي حال من الأحوال الاقتباس، أو النسخ، أو التحوير، لا.. فالروايتان تتحدّثان عن موضوعين مختلفين تمام الاختلاف، ولكنَّك تستطيع أن تجد خطاً يجمعهما، ولست بصدد المقارنة، وإنّما هي رؤية لعلّ أي قارئ للروايتين يتفق معي أو يخالفني.

حديث الصحراء هذا يعيدنا فيه ألبرتو فيكيروا إلى صحرائنا الأم في جزيرة العرب، بكل ما حملته وتحمله هذه الصحراء من قيم، وما ساد فوقها من أخلاق وعادات، وما شغلته من وَلَه حقيقي بها عند شعرائها، فالمُطَّلع على الشِّعر الجاهلي في وصف الصحراء يكاد يقول: إنَّ كاتب هذه الرواية قد عبر إلى روايته من خلال شعرنا العربي، وفي معرفة الكاتب بخطوط يد الصحراء، وقراءتها قراءةَ عرّافة محنّكة، يقول حيدر حيدر في تقديمه للرواية: (في حقيقة الأمر يبدو هذا الروائي هو العارف لا بالصحراء وتفاصيلها الجغرافية فحسب، وإنّما بالتقاليد والأعراف والبناء النفسي لشعب الصحراء، وروح الجرأة والشهامة ص 6)

ودليلنا في الرواية هو تلك المقارنة التي يجريها الكاتب بين الربع الخالي وبين أرض الخواء، (الربع الخالي في جنوب شبه الجزيرة العربية، وتيك دابرا في قلب الصحراء الكبرى يشكلان المنطقتين الأقفر من هذا الكوكب ص193)

ولنتابع حديث فيكيروا من خلال جملة روابط وردت في هذه الرواية عن الصحراء:

أولها: علاقة العربي بالإبل

الإبل للعربي في هذه الصحراء هي الحياة، وهي القوة والحركة، والتابع والرفيق، والمعين، وهي وسيلته ووعاؤه وأمنه وغذاؤه، هي جزءٌ منه، وهو جزءٌ منها، فغزال

المتعلق بجمله المهري يحبه ويرى أنه (الوحيد في هذا العالم الذي يستطيع إعادته إلى مضربه حتى في أحلك الليالي 17)

ووصف فيكيروا موت الإبل الضعيفة في تخوم هذه الصحراء يكاد يكون ما نقله إلينا أحد الشعراء الجاهليين، حيث انتشرت جثثها فوق الطريق وظهرت عظامها البيضاء لقدم عهدها، يقول علقمة الفحل: (ديوان علقمة 86).

بها جيف الحسرى فأمّا عظامُها
فبيضٌ وأمّا جلدُها فصليبُ

وتحدي الصحراء، وإثبات الرجولة والقوة، ومغامرة الشباب أيضاً تظهر في قول فيكيروا: (عبر غزال في حياته إحدى بقع أرض الخواء تلك مرتين: الأولى كانت نوعاً من التحدّي حينما أراد أن يبرهن بأنه جدير بأن يكون من سلالة الطوارق الأسطورية، والثانية وكان قد أصبح رجلاً أراد أن يبيّن لنفسه بأنه مازال جديراً بأن يكون ذلك الغزال القادر على المخاطرة بحياته في سني شبابه ص19)

تماماً كما كان الشاعر الشاب الجاهلي يقوم بعبور أشد الأماكن رهبة في الصحراء إبداءً للفتوة والقوة وحب المغامرة؛ فبالناقة القوية يتم قطع الصحراء الرهيبة، التي يُتخوَّفُ من اجتيازها، يقول: أحد الشعراء: (ديوانه 122)

وقد أقطع الخرقَ المخوفَ به الرَّدى
بعنْسٍ كجفنِ الفارسيِّ المُسرَّدِ

وأمّا السير والهداية عن طريق النجوم، فهذا دليل ابن الصحراء (مع حلول الظلام ظهرت النجوم، اختار غزال واحدة منها، وتبعها باستمرار ص197) وقد ورد ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى (وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) (النحل: ١٦).

وفي الشعر الجاهلي وَرَدَ قول الشاعر: (ديوان علقمة 40).

هداني إليكَ الفرقدان ولا حبٌّ
له فوق أضواءِ المتانِ علوبُ

ثانيها: الشغف بالصحراء والمعرفة الدقيقة بها، ووصفها:

يصوِّر لنا فيكيروا الصحراء تصوير خبير بها وبمسالكها ودروبها، وأحوالها، وشدّة هولها، وأولاً يتحدّث عن عشق المكان حتى لو كان (أرض قاسية بيد أنَّ غزال لا يتخيّل العيش في مكان آخر، ولا يبدِّل ظمأه، وقيظه، وصقيعه في هذا القفر اللانهائي بأي رفاهية من عالم آخر محدود وبلا آفاق ص41)

إنَّ هذه العبارة تذكرنا بميسون بنت بحدل الكلبية التي تزوجها خليفة المسلمين معاوية بن أبي سفيان ونقلها من بادية كلب إلى عاصمة الخلافة دمشق، فرفضت البيئة الأنيقة الرقيقة، وتمنّت العودة إلى خيمة الصحراء، فقالت:

لبيتٌ تخفق الأرياحُ فيه
أحبُّ إليَّ من قصر منيفِ

فهو يصفها بالجحيم الذي يذيب الكائنات البشرية، ويصف الرمال الزاحفة التي تخفي في ثناياها الكثير من البهائم والرجال من دون أن تترك لهم أثراً، بل إنَّ قيظ الهاجرة الشديد يصيب السائرين بالجفاف وصعقة الشمس، ولا يكاد الهواء لشدة سخونته يصل إلى الرئتين، لدرجة أنَّ الإنسان في الصحراء لا يشعر بالزمن؛ إذ يتوقف انظر ص 21 -72

والتكيّف مع الصحراء خبرة وذكاء فطري وُهِبَه ابن الصحراء، فإذا ما اشتدَّ القيظ ولم تكن تملك الماء فعليك حساب حركتك، وأن تفقد إحساسك بالحاجة إلى الشرب، بل تحاول أن تفقد إحساسك بالقيظ نفسه، وأن تحتفظ بالهدوء والسكينة، أمّا النوم في الرمل خشية الهوام، والحذر الشديد عند الوصول إلى السبخات، أو الرمال التي قد يغرق فيها من يقترب منها، كلّ ذلك له حسابه الدقيق عند هذا الطارقي العليم بحياة الصحراء، بل من أجل العيش يتم استخدام كرش الجمل كوعاء ماء يتم استخدامه عند الحاجة الماسة، فهو بعد أن ذبح جمله المريض، أخذ مما يحتويه كرشه (ماء -مُنتن أخضر- كان له أكثر من خمسة أيام في معدة الجمل ص111) وهذا يذكرنا بخالد بن الوليد رضي الله عنه، حيث اجتاز

بادية السماوة متوجهاً إلى الشام في معركة اليرموك، فاستخدم الجمال كخزانات لمياه شرب الجنود

إنّ شدة حرارة الصحراء ولهيبها الذي يكوي الوجوه يضطر عابرها إلى التنقب خوفاً من جوها المسموم، وسرابها وغبارها الذي يحجب الرؤية، تماماً كما يفعل الطوارق، بل إنَّ ذكر الآبار والمياه العفنة التي أصبح لونها من شدة العفن كلون الحناء، وشجر الصبيب الذي يُختضب به يَرِدُ في الشعر الجاهلي في وصف يكاد يكون هو نفسه ما جاء في الرواية، فهذا شاعر يقول: (ديوانه 42)

فأوردتها ماءً كأنَّ جمامهُ
من الأجن حنّاءٌ معاً وصبيب

بل إنَّ اللحم ذا الرائحة العفنة كان عابرو الصحراء يلتهمونه، كما في قول أحد الشعراء

وقد أُصاحبُ فتياناً طعامُهُمُ
خضرُ المزادِ ولحمٌ فيه تنشيمُ

فقد جاء في المعاني الكبير لابن قتيبة 1/381 كانوا إذا غزوا وسافروا قطعوا اللحم فجعلوه في كرش، فإذا أتى عليها أيام تغيَّر فذلك تنشيمه، وتخضر الكرش إذا تغير اللحم فيها.

بل إنَّ وصفه للطارقي وهو يعبر الصحراء وثيابه مشرعة للريح تذكرني بأبيات قالها أحد الشعراء في فتية وهم يعبرون الصحراء، والريح تجاذبهم ثيابهم، وكأنّها تطلب عندهم ثأراً، يقول:

وركبٍ كأنَّ الريحَ تطلبُ عندهم
لها تِرةٌ منْ جذبها بالعصائب

والفتوة وعبور الصحراء من لوازم إظهار القدرة والتحدي، وإذا كان شباب اليوم يتسابقون لإثبات بطولتهم وفتوتهم من خلال رياضات مختلفة، فإنّ شباب العصر الجاهلي كانوا يتفتون من خلال قدرتهم على عبور الصحراء . كما فعل غزال حيث عبر الأرض الخواء مرتين، وأصبح يُضرب به المثل.

ثالثاً: مكانة الضيف: (حس الضيافة يشكل البند الأول من قانون الأماهج غير المكتوب ص25)

وقد قامت الحكومة ممثلة بمفرزة أمنية بتحطيم هذا القانون الصحراوي، فقتل ضيف غزال، وخطف الضيف الآخر من خيمته وأمام عينيه، إهانة لا تُغتفر، ولذلك كان على غزال أن يقيم قانونه الصحراوي بنفسه (إذا قبلت بأن يقتلوا واحداً من ضيوفي، ألا يجب أن أقبل باغتصاب وقتل عائلتي.... اذهب وهيِّئ جملي وأسلحتي ص33) لماذا يترك طارقيٌّ بيته وأهله ويهيم في المجهول للانتقام ممن قتل ضيفه لأنَّ (هؤلاء المجهولين الذين قدَّم لهم يوماً مأوى هم حقيقة أبناؤه المفضّلون ص45)

ولذلك تحوَّل غزال إلى قاضٍ يقيم العدل بحسب رؤيته وطريقته (غزال يحاول أن يُقيم العدل.... يعرف غزال أنه يتصرف كقاض ص45) يقول فيكيروا عن مكانة الضيف في عرف الطَّوارق إنَّ الأساطير تروي قصة رجلين (يحقدان على بعضهما إلى درجة أنَّ أحدهما الأضعف حضر بغتة إلى خيمة عدوه ملتمساً ضيافة، غيوراً على التقاليد قبل الطارقي ضيافته ص51) وهذا ما كان يحدث في الصحراء العربية، فطالب الثأر يقف عند حدود الضيافة، فهي السياج الوحيد الذي يمنعه من أخذ ثأره.

ومن فضول القول أن نتحدّث عن مكانة الضيف عند العرب، وبخاصة في صحرائهم، حيث وصل الأمر بأحدهم إلى أن يقول:

وإنّي لعبد الضيف مادام نازلاً
وما لي شيمةٌ غيرها تشبه العبدا

والضيف لو كان قاتلاً ومطلوباً بثأر للمضيف نفسه، فإنّ قيم الضيافة تتطلّب من المضيف إكرام ضيفه، وعدم التعدي عليه.

قد ننتهي بسائل يسأل، وإذا كان الكاتب يعرف الصحراء العربية -سواءً تلك التي تحدّث عنها في الصحراء المغربية أو صحراء الجزيرة العربية- كل هذه المعرفة الدقيقة، فما علاقة ذلك بالحضور العربي؟ وهل الطوارق عربٌ حتى يجوز أن نناقش الحضور العربي في هذه الرواية؟

والجواب هو أنَّ الطوارق الذين تحدَّث عنهم الكاتب في أرض عربية، وصحراء عربية، فالبيئة عربية خالصة، إلى جانب أنَّ كلَّ أحداث الرواية، ومضمونها، وقيمها، وأساليبها، وعباراتها، وشخصياتها، عربية الطابع.

فلو نظرنا إلى أسماء شخصيات الرواية: غزال، صياح، ليلى، سويلم، مبارك، سعد، غالب، عبيد، مالك، حسان، علي، عبدالكبير، فهي عربية، عدا اسم ليلى الذائع التسمية ليس في بوادينا فقط بل وحواضرنا أيضا.

ولكنَّ الحضور الحقيقي يرتسم من خلال أربعة أمور، هي:

أولاً: أثر الاستعمار وتركته الثقيلة:

لعلَّ الاستعمار فهم وامتلك القدرة على التفاهم مع الشعوب التي استعمرها على اختلاف عقائدهم وإثنياتهم، يقول غزال: (الفرنسيون احترموا دائماً تقاليدنا ص43).

وهذه الخبرة بطبائع الشعوب التي امتلكها الاستعمار، فشل أهل البلاد في فهمها، (الكولونيل دوبريه رغم كل شيء، وكونه "كولونيالي" كان سيحترم تقاليد هذا الطارقي أفضل من الخنزير الكابتن غالب، رغم نضاله لصالح الاستقلال ص91) ومع ذلك فالاستعمار قتل كل شيء، قتل الطبيعة، استنزف الخيرات، فرَّق الإخوة، وقسّم البلاد، ووضع حدوداً مصطنعة حتى للقبيلة الواحدة في البلد الواحد، فأصبحت قسمين في بلدين، كل ذلك فعله الاستعمار، كل هذه القنابل الموقوتة التي دفنها الاستعمار في أرضنا تحوّلت بعد ذهابه إلى انفجارات، وتحوّل الصراع إلى صراع الإخوة (البعض يريد شيئاً والبعض الآخر يريد شيئاً آخر.... عندما ذهب الفرنسيون قسّموا الأراضي بحدود راسمين خطّاً على الخريطة، بحيث نفس القبيلة وحتى ذات العائلة يمكنها أن تنتمي إلى بلدين مختلفين ص161). نعم هذه الحقيقة المرة التي فعلها الاستعمار في كل البلاد التي استعمرها (قسّمونا إلى قطع صغيرة، وجزؤونا كما يحلو لهم ص184) وما زالوا على استعداد لعمل كل شيء وأي شيء، ينتقم لخروجهم، ويعيد إليهم سيطرتهم (إذا كان الفرنسيون مصممين على أن تنفجر الحرب الأهلية، لم يغفروا لهم إهانات العشرين سنة الماضية، مازالوا يحلمون بالعودة لوضع يدهم على ثروة كانوا يعتبرونها خلال قرن أنها ملكهم ص292).

ثانياً: حكومات الاستقلال:

يأخذ الكاتب الإسباني ألبرتو باثكث فيكيروا على عاتقه في هذه الرواية تعرية نظم ما بعد الاستقلال، وينطلق في أحداثه من خلال فكرة عدم فهم بعضنا لبعض كمواطنين في وطن واحد، وارتكاب خطأ ما بحق الآخر حتى لو كان جزءاً منّا من دون تقدير لعواقبه قد تمتد شرارته حتى تحرق ما لا نستطيع إطفاءه، وندمّر ما لا نقدر على إعادة بنائه.

القنابل الموقوتة التي دفنها الاستعمار تحوّلت بعد ذهابه إلى انفجارات

إذا كان الاستعمار قد ترك تركة ثقيلة، فإنّ من تركته الفاسدة حكومات هذه الدول التي وُجدت بعد ثورات وتضحيات ضد الاستعمار، ولكنَّ هذه الحكومات تحوَّلت من مدافع عن الشعب إلى مستغل فاسد، همُّهُ المحافظة على الحكم، والحفاظ على المصالح الشخصية، أما مصالح الشعب فغائبة، فهم بعد أن كانوا يترصّدون الضباط الفرنسيين في حيِّ القصبة لقتلهم، أو إلقاء القنابل على تجمعاتهم في الحي الأوروبي، صاروا يترصدون أبناء الوطن الذين يرون فيهم عدواً جديداً ضد نظامهم، مثلاً يضعون الخارجين على القانون في المناطق النائية والمواقع الخطيرة عقاباً لهم، فموقع عدوراس المتاخم للأرض الخواء أرسلوا إليه جنوداً من (حثالات الثكنات والسجون في البلاد... ما من أحد -من هؤلاء- يجب أن يعود حيّاً، لأنّ المجتمع لا يريدهم في كنفه، وقد رفضهم إلى الأبد، لا أحد يبالي بالتالي إذا ما طَعنوا بعضهم، إذا ما أخذتهم الحمّى، إذا ما تاهوا خلال دورية روتينية، إذا ما اختفوا ص71).

وللتعامل مع شريحة من أبناء الوطن التي يُفترض

أن يُرسل إليهـا خبراء يعرفون عاداتهم وتقاليدهم، وتقدير ظروفهم وإمكاناتهم وثقافتهم، وبيئتهم، فعلى العكس (هذا النمط من الجيف هم الذين يرسلونهم لمعاملة أناسنا الأكثر نقاءً، والذين يجب علينا رعايتهم، لأنهم الجزء الحي والأفضل في تاريخنا وبين شعبنا ص91)، هذه الحقيقة المرة التي تبدي لابن الوطن حُسن تعامل المستعمر، وسوء معاملة ابن الوطن تدمغ فترة ما بعد الاستقلال.

وتحوَّل الإخوة المقاتلون في سبيل الحرية إلى الإخوة الأعداء يتقاتلون على السلطة، ويقوم الاستعمار بدعم طرف على حساب آخر بحسب مصلحته، وما يراه، فالذي في السلطة قد تكون علاقته مع المستعمر سيئة، فإذا ما انقلب عليه إخوانه وجد عوناً من المستعمر، المهم إثارة القلاقل والفتن، وعدم الاستقرار في هذه الدول التي تمردت على مستعمريها وأجبرتهم على الخروج، فعبدالكبير الذي لم يلاق رضًا من الاستعمار عندما كان في الحكم، أصبح بعد أن انقلب عليه العسكر (ساعة موقوتة، يمكنه في أقل من شهر أن يقذف بالحكومة والنظام في الهواء إذا استطاع أن يجتاز الحدود، ويصل إلى باريس، فالفرنسيون سيضعون وسائل الإعلام نفسها التي منعوها عنه في زمن سابق تحت تصرفه، بين النقود الفرنسية، والزحف الجماهيري لا توجد قوة قادرة على أن تقف ضده ص177) بل تحوّل هؤلاء الأشراف من رجال أنقياء، إلى رجال فاسدين (الجميع الآن لديهم يخوت، قصور في الريفيرا، وأرصدة في سويسرا، مع أننا أقسمنا عندما كنا شباباً نناضل معاً، أن نكافح ضد الفساد بذات الروح التي نكافح بها الفرنسيين.... لكن لم يكن سهلاً النضال ضد الفساد ص190ـ191)، وقيام رجال الشرطة باعتقال عائلة صياح، وفعل الفاحشة مع زوجته من صور الفساد الموجودة، في بعض البلدان النامية، وهذه ليست مخالفة دينية فحسب، بل مخالفة أخلاقية وإنسانية، وتحوّل أبناء هذه البلاد الذين فرحوا بالاستقلال إلى ضحايا جدد لسادتهم الجدد من أبناء وطنهم (لستم أكثر من ضحايا لما آلت إليه البلاد في ظل هذه الحكومة ص253)، إنّ الرواية تطرح أسئلة حارقة مؤلمة، فهل نضحي من أجل أهداف سامية، وعندما تتحقّق هذه الأهداف نتنكّر لها، ونخنقها بأيدينا؟ وهل يصبح الوطن سلعة؟ ويتحوّل الثوري إلى تاجر؟ بكل أسف، نعم، هذا ما تؤكده الرواية، ويؤكده الواقع السياسي.

ثالثًا: حضور الجانب الديني:

إذا كان الحديث عن بلد عربي، وعن فئة متمسكة بدينها، فإنّ الحضور الديني سيكون مؤكداً، ويظهر لنا هذا الحضور من بداية الرواية التي تبدأ بـ(الله أكبر ولله الحمد)، وإذا كانت الرسالة تُقرأ من عنوانها، فإنّ هذه الرواية تُنبئكَ عن حضور عربي من أول خيط في نسيجها إلى آخر غرزة تُغلق هذا النسيج.

فتراه حاضراً في: الصلاة والصوم، والحج، والذبح، والرجم، وورود ذكر القرآن الكريم، والرسول صلى الله عليه وسلم، واسم مكة يَرِدُ مرات عدة، في التوجه إلى الصلاة، والحج، وعند الذبح.

(وفي كلّ يوم في كل صلواته متوجهاً إلى الشرق.. إلى مكة ص 41) و(غداً يبدأ رمضان ص203).

ورود مصطلحات أخرى، مثل: الكفار، والروم، وهي مصطلحات عربية إسلامية قديمة كانت شائعة في فترات الفتوحات الإسلامية.

وذِكْر بعض الأمور المحرمة في الدين، مثل الانتحار (ليس للانتحار مكان في عقول الطوارق، كذلك يجب ألاّ يكون له مكان في عقول الأغلبية الساحقة من المسلمين، لأنهم يدركون أنَّ الذي يحاول الاعتداء على حياته لا يستطيع أن يأمل ببلوغ الجنّة ص113).

والرجم، (العربي غيور على عذرية من ستكون زوجته، أو شرف ابنته،... وعبدالكبير يعرف بلداناً مثل: العربية السعودية وليبيا وحتى بعض المناطق في وطنه ذاته يتم فيها رجم أو قطع رأس الآثمين لأقل من ذلك بكثير ص200).

والذبح على الطريقة الإسلامية يظهر أيضاً في هذا الحضور، (غزال كمسلم صالح لا يأكل لحماً غير مذبوح باتجاه مكة تاليًا الصلوات التي أمر بها الرسول ص49) صلى الله عليه وسلم.

رابعاً: الأسلوب في الرواية:

إنَّ القارئ لهذه الرواية يجد الكاتب متأثراً بالأساليب العربية، سواء في تمثل الآيات القرآنية، أو الأمثال، أو القصص التراثية، ومن دلالة هذا الحضور للأسلوب

العربي، قول الروائي: (لم يشأ إدراك ذلك إلاّ بالتي هي أحسن ص217).

وتجد عبارة العدل أساس الملك في قوله: (إذا كانت البلدان تُبنى بالقيام بأعمال غير عادلة تكون نهايتها وخيمة ص 136).

وفي حديثه عن موت كل أفراد القافلة العظمى، يُرجع ما وقع لها بسبب الذنوب والمعاصي، وهذا أسلوب قرآني في عقاب الأمم التي تجاهر بالمعاصي، يقول: (كان يكفي لقادتها أن ينحرفوا قليلاً صوب الجنوب كي ينقذوا أنفسهم، لكن الله لم يشأ ذلك، ولا أحد سواه يستطيع أن يعرف بسبب أي آثام فظيعة عاقب أفرادها ص234)، والأمثال كذلك تنبع من البيئة العربية، فتشبيه الازدحام والالتصاق، مثل (تمر في كيس ص266) هو من بيئة الصحراء والنخل.

> الحرب من مستصغر الشرر، هذا المثل وهذه الفكرة تؤكدها الرواية في قوله (بدأت حرب لأنّ جملاً سحق غنمة)، وهذا يذكرنا بحرب البسوس وناقتها التي أشعلت حرباً بين بكر وتغلب مدة أربعين عاماً.

ويرد في السياق بعض القصص، والحكايات التراثية، مثل قصة ورود الجراد من صحراء المملكة العربية السعودية إلى الصحراء الجزائرية في حكاية أسطورية، حيث يأتي الجراد سنوياً إلى حقل رجل، فيحمله جيرانه إلى الخليفة للتخلص منه ومن الجراد الذي يحبه، لكن الخليفة ينفيه مدة سبع سنين إلى الساحل الغربي حتى (يوزع العبء بالتساوي ونستمتع كبديل سبع سنين في الرخاء، وسبع في البؤس ص259)، وهذا التقسيم وهذه الفكرة، كما هو معروف، ورد في سورة يوسف في القرآن الكريم.

ورود جزء من ثقافة الصحراء، وبخاصة العرافة والكهانة، والشعوذة، والأرواح الشريرة، من مكملات البيئة التي تعاني من الجهل (ستموت بعيداً عن عالمك، تكهّنت له العجوز كلثوم ص277).

وتظهر في نهاية الرواية الهزيمة الحقيقية، فما يسمى في الشعر رد الأعجاز على الصدور وفي الرواية اللقطة المرتدة أو المنعكسة، حيث البداية تُنبئ عن النهاية، فمشروع غزال الثأري المتفق مع العرف والتقليد تحوّل إلى نقيض لمشروعه الأسري، فـ(الكائنات التي أحبّها تحوّلت إلى ضحية لحربه الخاصة، وشكّلت في الحقيقة الهزيمة الأكثر فظاعة ص 255) فتلك العبارة التي ذكرها في بداية الرواية التي انتهت بها الأسطورة، وتقول: (أترون كيف أنَّ الحق والصراع بين العائلات لا يقود إلى شيء سوى الرعب والجنون والموت ص257) هي ما أنهى بها روايته، عندما رأينا بطل الرواية يفقد أسرته، ثمَّ يقتل النموذج الذي خاطر بحياته من أجله ودافع عنه، إلى أن ينتهي بقتله هو.

> العربي غيور على عذرية من ستكون زوجته، أو شرف ابنته

أخيراً: يريد فيكيروا أن يقول لنا: أتحدّاكم إن كنتم تعرفون عن عوالم الصحراء ما أعرفه، أنتم أبناء الصحراء، فمعلوماتي ستبهركم، وتجعلكم تسلمون لي بأنني استطعت أن أجعل الصحراء ناطقة، فإليكم حديث أرضكم، حديث هذه الصحراء العارية المكشوفة، التي امتلكت كشف عوار أنظمة ما بعد الاستقلال، لقد تحوّلت هذه الرواية الكاشفة إلى ضوءٍ ساطع بدايته تنطلق من حكاية فردية، وكما يقول حيدر حيدر: (وفي سياق هذه المغامرة الأسطورية، ينزاح البعد الفردي نحو أفق سياسي في النهاية ليكشف لنا عن مرمى أعمق، هو: الصراع على السلطة في أعقاب رحيل الاستعمار عن المغرب العربي، ومن خلال هذا الانزياح من الفردي إلى الجماعي، ومن الذاتي إلى الموضوعي تكتسب الرواية أفقاً موضوعياً، ومعرفياً، يشير إلى معرفة الروائي بالصراع السياسي، وآلية الفساد القائمة في بنية مجتمعات بلدان العالم الثالث ص7).

وفي ختام هذا الحضور المتألق أقول: هل نُطلق على رواية طوارق نشيد الصحراء؟ هذا النشيد المفعم بالجمال، المُرونق بالحسن، المُتّرع بالقيم، وكيف يتحوّل القبح إلى جمال، والعسير إلى يسير، والصعب إلى سهل؟ نعم إنها نشيد الصحراء.

نحو مئوية التعليم النظامي في البحرين

د. إبراهيم عبدالله مطر

لم يبقَ إلا أربعةُ أعوام ويمرُّ قرنٌ من الزمان على تأسيس التعليم النظاميّ في البحرين. مائة عام انقضت حملت في ملامحها وبين طياتها هذا الحدث التنويري الذي أضاء الشعلة الأولى في انتشار التعليم والتنوير في منطقة الخليج العربي. كيف استطاع الجيل المؤسس من الأوائل وضع الأسس الأولى للتعليم، بل كيف حافظ الجيل المؤسس على هذا الإرث التعليمي. قرنٌ من الزمان مرَّ، ومرَّ معه التعليم في البحرين بمراحل عديدة، لعل أبرزها ظهور مدرسة الهداية الخليفية في مدينة المحرق، وصدور أول تقرير عن التعليم في البحرين، وانطلاق تعليم البنات خلال فترة العشرينيات.

المعهد العالي للمعلمين.. انطلق عام 1968م

وقد تمّ خلال فترة الثلاثينيات أن أقدمت الحكومة على تولّي مسؤولية المدارس الخيرية الأهلية، ووضعتها تحت إشرافها المباشر، فدمجت شِقّي التعليم في إطار واحد ومجلس واحد، وتمّ إطلاق التعليم الصناعي. ولعل أبرز ملامح فترة الأربعينيات هي افتتاح أول مدرسة ثانوية للبنين بالمنامة وسميت (الكلية)، وكانت تضمُّ المتفوقين في المرحلة الابتدائية. كما شهدت فترة الأربعينيات كذلك أن قيام حاكم البحرين الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة بتعيين أحمد العمران مديرًا للمعارف، وهو أول مدير بحريني يتولى مسؤولية المعارف. وجاءت فترة الخمسينيات.. ولعلَّ من أبرز ملامحها تشكيل مجلس المعارف برئاسة سمو الأمير الشيخ خليفة بن سلمان آل خليفة. وكذلك شهدت فترة الستينيات افتتاح المعهد العالي للمعلمين والمعلمات، وإنشاء كلية الخليج الصناعية لتتخصص في التعليم الفني والتقني، كما شهدت انطلاقة أول حفلات عيد العلم، إذ أقيم برعاية سمو الأمير الراحل الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة. أما فترة السبعينيات، فقد شهدت تشكيل أول وزارة للتربية والتعليم في البحرين بعد الاستقلال، وشهدت كذلك تطوير معهد المعلمين والمعلمات ليصبح الكلية الجامعية للآداب والعلوم والتربية. وخلال الثمانينيات أعيدت تسمية كلية الخليج الصناعية لتصبح كلية الخليج للتكنولوجيا، وشهدت بدء المؤتمرات التربوية السنوية، وتأسيس جامعة الخليج العربي في البحرين، بعد قرار للمؤتمر العام لمكتب التربية العربي لدول الخليج عام 1979. كما شهدت الثمانينيات تأسيس جامعة البحرين بضم كليتي الخليج للتكنولوجيا والكلية الجامعية للآداب والعلوم والتربية. وفي فترة التسعينيات، تم إنشاء معهد البحرين للدراسات المصرفية. ثم جاءت الألفية الثانية حاملة معها انطلاق الميثاق، الذي من خلاله كانت بداية تنظيم تعدد الجامعات والمعاهد في البحرين، وتأسيس أول مجلس متخصص في شؤون التعليم العالي، وهو مجلس التعليم العالي، وظهور قانون للتعليم، وإطلاق مشروع الملك حمد بن عيسى آل خليفة لمدارس المستقبل، وإطلاق مبادرات تطوير التعليم والتدريب، وإنشاء كلية البوليتكنك، وكلية البحرين للمعلمين.

ويعد التعليم أهم ركائز التحول المجتمعي في البحرين؛ فبالتعليم تحول نمط العيش في البحرين من شكل إلى آخر، خلال فترة ليست بالطويلة. تحول من نمط مجتمعي كان يعيش على خيرات البحر واليابسة والبستان إلى مجتمع يعيش على موارد أخرى، مثل النفط وحركة الاقتصاد والصناعة والاتصال. ولا شك أن طبيعة المجتمع البحريني هو العنصر المساعد الأول على هذا التحول، فهو مجتمع ذو طبيعة مميزة ساعدت على هذا التحول. ويُعَدُّ التعليم من أكبر قطاعات المجتمع ديناميكية، وقد سجلت البحرين سبقا في هذا القطاع قبل بداية القرن التاسع عشر مقارنة بدول الجوار. ومن الإشارات الجلية على ريادة البحرين للتعليم والتنوير في المنطقة هو تأسيس التعليم الصناعي منذ منتصف الثلاثينيات من القرن المنصرم، حينها كانت الأقطار المجاورة بالكاد تتلمس خطواتها الأولى نحو التعليم النظامي العام. وعند الحديث عن

طلاب مدرسة الهداية الخليفية بعد التأسيس

تاريخ هذا القطاع الزاهر، لا شك أنك سوف ترى تاريخا ملونا بتفاصيل دقيقة وصور ومشاهد ناطقة، وربما مرئيات قد حفظ الأوائل هذا التاريخ من خلالها للأجيال اللاحقة. وتعتمد منهجية تقديم هذا المحتوى على الوقوف عند عدد من المراحل المهمة خلال الـ100 عام الماضية من مسيرة التعليم المضيئة. ومما لا شك فيه أن هناك عددا ملموسا من المحطات والوقفات خلال مسيرة التعليم والتي قد ساعدت -بحق- في تغير وجه الحياة في البحرين وبالإمكان اختزالها على النحو الآتي:

أولا: ما قبل التعليم النظامي، وهنا نتحدث عن المداس أو المعاهد التي خرجت قبل إنشاء مدرسة الهداية الخليفية ما بين عامي 1890 و1919.

ثانيا: بعد بدء التعليم الرسمي الذي بدأ عام 1919. هنا نتحدث عمّا بعد إنشاء مدرسة الهداية الخليفية حتى تدفق النفط عام 1932، أي أثناء الفترة الممتدة من عام 1919 إلى 1932.

ثالثا: مرحلة تجارة اللؤلؤ وتدفق النفط إلى سنوات الاستقلال في بداية السبعينيات. ويمكن أن نطلق عليها مرحلة بناء التعليم بمراحله المختلفة وربطه بمتطلبات التنمية آنذاك، أي ما بين 1932 و1971.

رابعا: مرحلة ما بعد الاستقلال إلى ما قبل التصويت على ميثاق العمل الوطني، ويمكن أن نطلق عليها مرحلة تشكل التعليم واتساعه وتنوعه ما بين عام 1971 و2001.

خامسا: ما بعد التصويت على ميثاق العمل الوطني وإلزامية التعليم ومجانيته وكفل الخدمات التعليمية والثقافية، أي هي مرحلة ضبط التعليم، وظهور مؤسسات للتعليم العالي وتنوعها والتوسع فيها، منذ عام 2001 إلى الوقت الحاضر.

واختصارًا لحجم المعلومات هنا، سوف نلقي الضوء فقط على المرحلة الأولى، وهي المرحلة التي سبقت تأسيس التعليم الرسمي في البحرين، أي الفترة الممتدة من عام 1890 إلى عام 1919. وسوف نمر سريعا إلى مرحلة ما بعد بدء التعليم الرسمي، وهي بدء انحسار اقتصاد اللؤلؤ وتدفق النفط، أي في الفترة من 1921 إلى 1932. إجمالاً، بدأ التعليم نظاميا في منطقة الخليج العربي مع مطلع القرن التاسع عشر. والبداية كانت في البحرين حين بدأ بمحاولات ومدارس ونمط غير رسمي حتى قبل عام 1899. أما في الكويت، فكانت بداية التعليم الرسمي عام 1912، وفي قطر عام 1913، وفي سلطنة عمان عام 1930، وفي المملكة العربية السعودية عام 1932، وفي الإمارات العربية المتحدة بدأ تطور التعليم بصورة فعلية عام 1962. والبحرين من أولى دول المنطقة التي بدأت تعليمها قبل النظامي قبل عام 1900. التعليم حينها كان مقصورًا على بيوت الكتاتيب (المطوَّع)، وهي مواقع تعليمية تقليدية هدفها الأساسي تعليم قراءة القرآن للناشئة.

قبيل 1900.. المطوع والمدارس الوقفية

في البداية بدأ التعليم ليلبِّي مرحلة الاقتصاد المعتمد على تجارة استخراج اللؤلؤ من هيرات البحرين وبيعه،

وهي مرحلة يمكن وصفها بأنها تتطلب تعليم علوم الدين والشرع والقليل من القراءة والكتابة والحساب، وهي مرحلة الكتاتيب أو (المطوَّع). اتَّصف التعليم حينها بتعليم نتج من محاولات أهلية وخيرية عدة، نتج بعدها التعليم النظامي. تذكر مصادر ومراجع الاقتصاد الأولية أنه مع نهاية القرن التاسع عشر كانت الحِرَف الأساسية مثل الزراعة وصيد الأسماك واستخراج اللؤلؤ هي الأنشطة الأساسية للعيش لساكني البحرين. كما كان يوجد نشاط تجاري محدود. كانت تجارة اللؤلؤ تشكل المحرك الرئيسي لاقتصاد سكان المناطق الساحلية في منطقة الخليج العربي على مدى عشرات السنين. لقد صاحب التجارة في قطاع اللؤلؤ والتجارة فيه، الحاجة إلى عدد من مفاهيم الحساب والقراءة، الأمر الذي جعل التجار في ذلك الزمان يبعثون أولادهم لتعلم الحساب والقراءة وشيء من الكتابة عند الكتاتيب.

خلال هذه الفترة، وهي فترة اعتماد المجتمع آنذاك على البحر والبستان، شهدت البحرين بشكل عام انتشارًا واضحًا لدور تعليم القرآن أي (المطاوع والكتاتيب) في المدن والقرى. إذ كان المطوع يتولى تعليم القراءة والكتابة والحساب انطلاقاً من تدريس القرآن. إذن، البداية بالكتاتيب، ومع نهاية القرن الثامن عشر، كان عددها يفوق 30 كُتّابًا منتشرة في عدد من مناطق البحرين وقراها. وبمعناها المجرد، فالكتاتيب عبارة عن غرف لتعليم القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن. وكان قبول الأولاد والبنات حتى سن 10 من دون تمييز ومن دون النظر إلى المستوى أو الوضع الاجتماعي. أما الكتاتيب فتطورت في ذلك الزمان، فأصبحت تقدم تعليم مبادئ الحساب واقتصر على أبناء الأغنياء والتجار، وللأولاد فقط من دون البنات. وشهدت هذه الفترة ظهور عدد من المدارس الوقفية التي تعلم مبادئ الدين والفقه والأخلاق وشيئا من الكتابة، مثل مدرسة حسين بن مطر الوقفية في وسط المحرق (ولعل أشهر من درس فيها القاضي الشيخ عبداللطيف الجودر)، ومدرسة حسن بن خاطر، ومدرسة سعيدة بنت بشر (الغتمان) ومدرسة بن هندي. ومدرسة علي بن إبراهيم الزياني. في هذا الصدد أشار المؤرخ مبارك الخاطر إلى وجود مدارس دينية قبل التعليم النظامي، وأن هذه المدارس تتمتع باستقلالية في مواقعها ومساجدها وشؤونها المالية، ولها أيضا حجج وصكوك وتضخ بالصدقات والهبات من المحسنين. هناك أيضا مدرسة السيد عبدالوهاب الطباطبائي وعبدالله بوراشد، ومدرسة يوسف بن أحمد بابيع، ومدرسة الرستاقي ومدرسة أحمد المهزع. كانت بعض هذه المدارس تعلم أيضا الخط والكتابة والحساب، إضافة إلى القرآن الكريم. وفيما يخص الكتاتيب أيضا، فإنه قبل بدء التعليم النظامي في البحرين كانت الدراسة مقتصرة على تعليم القرآن واللغة العربية ومبادئ الحساب عند الكتاتيب. كان الأولاد يتلقون تعليمهم عند (الملا) أو (المطوع) بينما البنات عند (المطوعة)، كل هذا نظير مبلغ مالي يسير. بعدها يُعطَى الملا مبلغًا آخرَ متفقًا عليه عندما يختم الطالب القرآن بالكامل. ويعطى المطوع أيضا العيدية والفطرة (زكاة الفطر). وكان المطوع يستخدم أسلوب الضرب والتهديد والوعيد لترهيب الأولاد. كانت الكتاتيب تنتشر في مدن وقرى البحرين، فقد تركزت أهم هذه الكتاتيب في مدينتي المنامة والمحرق، والحد، وقرى الخميس وسترة والدراز وجدحفص. وحملت على عاتقها واجب ومهمة تنشئة النشء وتزويدهم بالمعارف الدينية التي يحتاج إليها المجتمع في ذلك الوقت، وهي المتمثلة في تعليم القرآن وحفظ أجزائه الثلاثين، إلى جانب شيء يسير من التفسير والواجبات الدينية.

عندما ينهي الخاتم -أي المتخرِّج- دراسته لحفظ القرآن الكريم بأجزائه الثلاثَين كانت تقام له قراءة بالختمة، وهي بمنزلة حفل التخرج. يمرّ موكب التخرج هذا، يتقدمه الخاتم الذي أنهى قراءة القرآن، إذ يرتدي الخاتم أجود ما عنده مَن الملابس التقليدية بـ(البشت والعقال)، وقَد يمسك سيفا بيده اليمنى، ويرافق الطالب الخاتم معلمه وبقية أقرانه فيمرون على بيوت الحي، عندها يقومَ الأهالي بدورهم بتقديم بعض النقود، التي هي بمقام هدية البيوت للتخرج تكريما وتقديراً منهم لطلاب العلم وأساتذتهم. لقد جرت العادة أن يقوم المرافقون من الأقران في الموكب بترديد ما يسمى (التحميدة)، التي تُقرَأ من كتاب صغير، وفي إطارها اللغوي فإن (التحميدة) تتكون من نظم شعري موزون، وعند كل بيت ومطلعها: «الحمد لله الذي هدانا، للدين والإسلام واجتبانا، سبحانه من خالق سبحانا، بفضله علمنا القرآنا... حتى النهاية». واستمرت هذه الكتاتيب في البحرين خلال العقود الأربعة الأولى من القرن العشرين. «وأستطيع الجزم بأنَّه منذ مطلع عقد الخمسينيات بدأت الكتاتيب في التلاشي والاختفاء نظراً إلى انتشار المدارس الحكومية في مدن البحرين وقراها»، راجع: منصور سرحان - الأيام فبراير 2012.

جوزة البلوط عام 1899 وبداية لمنهجية جديدة للتعليم في البحرين

كما أشرنا إليه سالفا، كان تعليم الكتاتيب أو المطوع في أبسط صوره التعليمية الممكنة وفق ذلك الزمان، إذ كان

المطوع والمدارس الوقفية شكلت فترة مهمة من مسيرة التعليم قبل عام 1919.

كثيرون في ذلك الزمان يشعرون بأن ذلك النوع من التعليم لا يحقق كفاية علمية تناسب روح العصر. مع بدايات 1900، وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى تغيرت الأمور، وأدى انفتاح البحرين بصورة أشمل على تطور ومعطيات النهضة الغربية الجديدة إلى إحداث تحولات سياسية واجتماعية كبيرة في منطقة الخليج والبحرين تحديدا. ونتج عن ذلك تحول في الوعي وانبثاق ثقافي واجتماعي بين أفراد مجتمع البحرين. وبحكم ذلك ظهرت الحاجة إلى إنشاء مواقع تعليمية حديثة تختلف عن المطوع أو الكتاتيب من ناحية نظمها ومناهجها وأهدافها.

ولكن قبل هذا التحول، حدث أمر آخر قبيل عام 1900 وهو وجود بعثة الإرسالية الأمريكية التي اتخذت من البحرين انطلاقة لها. فوفقًا للوثائق المرصودة، بدأ التعليم ما قبل النظامي مبكرا في البحرين تحديدًا. إذ أنشأت الإرسالية الأمريكية (من خلال الخدمات الطبية والتعليمية) أول مدرسة للفتيات عام 1899. واتخذت من شعار جوزة البلوط رمزًا لها منذ التأسيس، وذلك في بيت جمعة بوشهري في المنامة، وهو موقع مدرسة عائشة أم المؤمنين الآن. وتشير المراجع في هذا الصدد إلى فتح السيدة إيمي زويمر وهي زوجة القس صموئيل زويمر، مدرسة للبنات، سمتها (شجرة البلوط)، وذلك عام 1899.

وتذكر مراجع التاريخ التي كتبت عن هذه الفترة أيضا أنه بعد مرور ثلاث سنوات، أي في عام 1902 شهد أيضا إنشاء أول مدرسة للبنين تابعة للإرسالية الأمريكية. لم يقف أهل البحرين ضد علوم الطب والتعلم، ولكن عملية التبشير لم يكن مرحَّب بها، بدليل أن الأهالي يبعثون أبناءهم إلى مدرسة التبشيريين للتعلم صباحا وإلى المطوع في المساء. هذا الذي حدث فعلا، فمع مرور السنوات وتحديدًا في عام 1936 أغلقت مدرسة الإرسالية الأمريكية في البحرين والتي أسستها إيمي زويمير عام 1899 للبنات ومن ثم عام 1902 للبنين، بعد أن تبين أن كلتا المدرستين قد فشلتا في تحقيق هدفهما وهو التبشير بالديانة المسيحية.

ظهور مدرسة الإصلاح المباركة في 1913

في عام 1913 حدث أمر آخر وشهد ظهور مدرسة الإصلاح المباركة، وسميت مدرسة العجم. هي أول مدرسة أهلية في فريج العجم بمنطقة المنامة. عمل بوشهري دورًا في تأسيس ثاني مدرسة شبه نظامية في البحرين بعد مدرسة الإرسالية الأمريكية التي تأسست عام 1899. وفي عام 1913 قامت مجموعة من التجار العجم بتأسيس مدرسة خاصة لتعليم البنين. عقدت المدرسة فصولها الدراسية في بادئ الأمر على عتبات مأتم العجم في فريج المخارقة في أكتوبر 1913، ثم انتقلت إلى عريش مؤقت في مواجهة المأتم. وفي عام 1915 انتقل العريش إلى مبنى مستأجر من جمعة بوشهري وأطلق عليها مدرسة الإصلاح المباركة. ظلت هذه المدرسة في نفس الموقع حتى 1923 حينما انتقلت إلى مقرها الدائم قرب مدرسة فاطمة الزهراء في المنامة.

شعلة التعليم تضيء والمحرق تشهد أول مدرسة أهلية -خيرية-نظامية عام 1919

وفق عدد من المصادر فإنّ مدرسة علي بن إبراهيم الزياني هي أول مدرسة أهلية خيرية تقام في المحرق، وقد كان ذلك عام 1912. مدرسة علي بن إبراهيم الزياني كان بيتا مثل المطوع ويقع على مشارف الحالة بالمحرق. كان لصيقًا للمسجد في منطقة فريج الزياني. مدرسة علي بن ابراهيم الزياني التي قد افتتحت كمدرسة أهلية خيرية في عام 1912م، أي قبل افتتاح مدارس التعليم النظامي بسبع سنوات وكان يتحمل نفقات المدرسة وكل ما يتعلق بالتدريس المحسن علي بن إبراهيم الزياني. المدرسة بسيطة وكانت تفي بأغراض وحاجات ذلك الزمان وكانت تحتوي على ثلاثة فصول ويدرس فيها خمسون طالبًا. كان عدد المدرسين خمسة وكان يدير المدرسة الأستاذ حافظ وهبة. بعدها بسنوات قليلة، استخدمت مدرسة علي بن إبراهيم الزياني مقرًّا مؤقتًا لمدرسة الهداية، وكان ذلك في عام تأسيس مدرسة الهداية عام 1919 إلى حين الانتهاء من إنشاء المبنى الجديد للهداية. من ذلك الموقع انطلق التعليم النظامي في البحرين من المحرق. درس في تلك الفترة والمدرسة كثير من الطلاب، ومنهم الأستاذ أحمد العمران الذي أصبح ناظر المعارف لاحقا. في عام 1922 زار المؤرخ أمين الريحاني البحرين وزار مدرسة الهداية المؤقتة (وهو موقع مدرسة علي بن إبراهيم الزياني) وكان مدير المدرسة آنذاك الأستاذ عبدالعزيز العتيقي. البداية كانت صعبة والمراحل الأولى نحو تأسيس نظامية التعليم في البحرين لم تكن صدفة، فهناك عوامل رئيسية أدت إلى انتشار التعليم في بدايات عام 1900، إذ برزت في البحرين ما بين عام 1920 وتعميمه في ربوع البحرين ما يشبه الطفرة. ولعل أهم هذه المظاهر: هي تفاعل الأحداث في المنطقة بسبب الحرب العالمية الأولى، وظهور المؤسسات الإدارية وتطورها، والفكر التنويري الذي كان يتمتع به الشيخ الحاكم عيسى بن علي آل خليفة وهو ممسك بمقاليد السلطة آنذاك، وانفتاح تجار البحرين ووجهائها على العالم الخارجي، وذلك لتعدد أسفارهم المتكررة إلى الهند وباريس بهدف التجارة. إذن، أصبحت البحرين أكثر انفتاحا وتقبلا على التأثيرات الغربية والتجارة والحاجة إلى تعليم البنين الحساب واللغة والكتابة بشكل أكثر منهجية إبان الحرب العالمية الأولى. هذا الأمر الذي جعل الوجهاء والتجار يفكرون في إنشاء نظام تعليمي لأبناء البحرين. إذن، في عام 1919 شهد تأسيس وظهور أول مدرسة نظامية لتدريس البنين وهي مدرسة الهداية الخليفية، وهي أول مدرسة نظامية رسمية في المحرق، ولكنها كانت خيرية، وقد اتخذت من منزل الحاج علي بن إبراهيم الزياني موقعًا لتنير به الشعلة الأولى.

وللتعرف على الجيل المؤسس الأول لحركة التعليم في البحرين، فإنه بعد ظهور مدرسة جوزة البلوط التابعة للإرسالية الأمريكية وظهور مدرسة الإصلاح المباركة عام 1913، وقبيل عام 1919 تشاور أهل الرأي والعقد في جزيرة المحرق وأجمعوا على ضرورة العمل لإنشاء مدرسة نظامية مجانية. بطبيعة الحال، بارك حاكم البحرين هذا النداء واكتتبوا لصالح المشروع وبُدئ العمل المنظم وتأسست مدرسة الهداية الخليفية للبنين في عام 1919م في المنطقة الشمالية من مدينة المحرق. لقد قام بإنشاء هذه المدرسة لجنة خيرية أهلية من الأهالي برعاية ورئاسة المغفور له الشيخ عبدالله بن عيسى آل خليفة رجل المعارف حينها، بمساعدة التبرعات التي جمعت لهذا الغرض. بخصوص أعضاء اللجنة المؤسسة الخيرية التي أسست مدرسة الهداية الخليفية، وهم: الشيخ عبدالله بن عيسى بن علي آل خليفة، الشيخ إبراهيم بن محمد آل خليفة، عبدالوهاب بن حجي الزياني، سلمان بن حسين بن مطر، محمد بن راشد بن هندي، محمد صالح بن يوسف خنجي، يوسف بن عبدالرحمن فخرو، عبدالعزيز بن حسن القصيبي، محمد بن صباح آل بن علي، عبدالرحمن بن محمد الزياني، عبدالرحمن بن عبدالوهاب الزياني، عبدالرحمن بن أحمد الوزان، أحمد بن حسن بن إبراهيم، علي بن عبدالله العبيدلي. في عام 1920 تم وضع الأساس لمدرسة الهداية الخليفية للبنين، وتم افتتاح المدرسة في عام 1923. يُعَدُّ افتتاح مبنى مدرسة الهداية الخليفية في شمال المحرق، والتي هي مرحلة مهمة في تاريخ ومسيرة التعليم في البحرين كأول مدرسة حديثة لتعليم البنين في شمال جزيرة المحرق. وتذكر المصادر أنه قد استخدم في بناء المدرسة أفضل أنواع الحجر الطبيعي، تم جلبه من جزيرة جدة، ويقال من منطقة قلعة البحرين. أشرف على تصميم مبنى المدرسة مهندس معماري هندي، وتُعَدُّ المدرسة محطة مهمة في مسيرة التعليم الحديث في الدولة. يقول الأستاذ عبدالحميد المحادين في أحد لقاءاته، لقد كان اختيار اللغة العربية للتعليم الرسمي في البحرين اختيارًا موفقا، فلو كان اختيار لغة غير اللغة العربية، لكانت الصورة مختلفة عمّا نراه اليوم. إذن، شهد عام 1920 وضع حجر الأساس لمدرسة الهداية الخليفية النظامية للبنين بالمحرق، وذلك يوم الإثنين 16 نوفمبر 1920. كلف المبنى 300000 روبية من تبرعات الأهالي والأعيان والوجهاء. جلبت الأحجار من جزيرة جدة، والأبواب والنوافذ من ملبار بالهند. كان تشييد مدرسة الهداية استثنائيًّا وفق معطيات ذلك الزمان، في كل شيء، ومميزًا عن غيره في نواحٍ عديدة.

فالمبنى أقيم على أحجار كبيرة قطعت من جزيرة جدة ويقال من منطقة القلعة. ليس هذا كل شيء، بل أتوا لها من الهند ببنائين مهرة اختصوا في تقطيع مثل هذا النوع من الأحجار الكبيرة، بينما أبوابها وشبابيكها جلبت أيضا من ميليبار بالهند، وقد شرع في البناء عام 1920، وبما أن بناء هذه المدرسة كان يُعَدُّ في ذلك الوقت مشروعًا كبيرًا نتيجة لجهود أهلية مشتركة، وكأولى الخطوات فقد بدئ بالاكتتاب لجمع التبرعات من أهالي الخير، وخصوصا من مدينة المحرق، حتى بلغت مائتي ألف روبية بينما بعض الأهالي الميسورين فضلوا دفع اشتراكات مالية شهرية. كانت مساحة الأرض التي أقيمت عليها هذه المدرسة هي هبة من الشيخ الحاكم عيسى بن علي آل خليفة، أضف إلى ذلك تبرعه المالي السخي هو والعائلة الحاكمة. أما كلفة البناء فقد بلغت ثلاثمائة ألف روبية. وقد فتحت المدرسة أبوابها للطلاب عام 1923 حين اكتمل من صفوف الأجنحة الثلاثة بالمدرسة. كما بنيت حجرات سكن للأساتذة المدرسين الوافدين في الطابق العلوي من الجهة الشمالية. مرّ الزمان وإذا بالصفوف تمتلئ وتضيق على من فيها، ما أجبر مدير المدرسة على أن يتفق مع إدارة النادي الأدبي بالمحرق على فتح صفوف مسائية مؤقتة في النادي نفسه. وكل ذلك جرى بسبب الإقبال الكبير على تلقي العلم والمعرفة. وتشير الوثائق والمصادر التاريخية المتوافرة إلى الدور البارز الذي اضطلع به ابن الحاكم الشيخ عبدالله بن عيسى آل خليفة الرئيس الرسمي للإدارة الخيرية للتعليم، والذي صار وزيرا المعارف فيما بعد، في سبيل الترويج لقبول فكرة المدرسة من قبل أبناء المجتمع آنذاك ومطالبتهم بالمساهمة في نجاحها من خلال تبرعهم لهذا المشروع.

الهداية الخليفية وجلسة العمل الأولى برئاسة الشيخ عبدالله بن عيسى آل خليفة

يشير المحادين في كتابه إلى أنه «قد تطرق الكاتب إلى ظروف انطلاق تأسيس المدرسة النظامية الأولى بالبحرين، وكان ذلك خلال جلسة العمل الأولى لهم، التي عقدت برئاسة الشيخ عبدالله بن عيسى بتاريخ 13 ربيع الثاني 1338 الموافق للرابع من يناير 1920. وقد حضر هذه الجلسة 47 من وجهاء البحرين ومن نخبتها المثقّفة». يروي عبدالحميد المحادين أنّ الاجتماع «كان بدار الشيخ عبدالله بن عيسى آل خليفة وبرئاسته. وأثناء الاجتماع دخل مندوب الملك حاملاً مرسومه الكريم لنجله رئيس الجلسة، فتناوله وفضّ أختامه وأمر من يتلوه على مسامع الحاضرين، فتناوله السيد يوسف كانو وتلاه على الحاضرين:

بسم الله الرحمن الرحيم

«من عيسى بن علي آل خليفة إلى حضرات الأجلاء الكرام الذوات المجتمعين في ما يرضي رب العالمين، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أمّا بعد فإني أنهي إليكم ابتهاجي العظيم وشكري الجزيل على اجتماعكم واتفاقكم في سبيل هذا العمل الخيري الجليل سائلاً المولى جل شأنه أن يوفّق الجميع لما فيه رضاه يوم تلقاه إنّه سميع مجيب. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته في 13 ربيع الثاني 1338 (ويوافق 4 يناير 1920)».

شكر الحاضرون تعطّف الملك المعظّم ودعوا له بدوام التأييد. (راجع المحادين - الخروج من العتمة). ويقول المحادين أيضا: «ونقف في هذا الصدد عند شخصية مهمة هي الشيخ المالكي قاسم بن مهزع الذي تصدّى لبعض علماء الدّين الذين عارضوا إنشاء مدرسة الهداية. فلمّا ظهرت لدى بعض وجهاء البحرين فكرة تأسيس تعليم حديث في البحرين واجهوا معارضة حادّة، حتّى أنّ الشيخ الصحاف إمام أحد المساجد خطب محذّرًا من التعليم ومدعيًا أنّ التعليم ضدّ الدين بل هو نقيض الدّين. هذا جعل الشيخ قاسم بن مهزع يعلن تأييده للتعليم بأن ردّ على الشيخ الصحّاف معتبرًا ما قاله تناقضًا بين الدّين والعلم». (د. عبدالحميد المحادين - الخروج من العتمة).

إنّ هذا الموقف الجليل يجعل من القاضي قاسم بن المهزع شخصيةً ريادية في مجال بروز التعليم النظامي الحديث لما كان يتمتّع به من سلطة دينيّة منحته هيبةً لدى الخاصة والعامة. وقد قدّمت هذه الشخصية مساعدة أساسيّة للقائمين على مشروع إنشاء المدرسة في مقابل أطراف معارضة لها من المؤسسة الدينية. وقد تجلّت هذه المساعدة من خلال محضر الجلسة التمهيدية المؤرخة في 19 ربيع الأول سنة 1338 الموافق لـ5 ديسمبر 1919، فقد وجدت «معارضة للمشروع لم يغفلها الحاضرون، بل التفتوا إليها وعلّقوا الجلسة حتّى يزيلوا من أذهان المعترضين ما علق بها من سوء فهم لمشروع التعليم وتوجهاته ولما أوجسوا من نتائجه. وكان لا بدّ لإزالة هذا التوجّس الذي استند أصحابه إلى أسانيد دينية من اللجوء إلى جهة مرجعيّة دينية تدافع عن هذا المشروع وتزيل من ذهن العامّة مخاوفهم وتطمئنهم، غير قاسم المهزع آنذاك، لكي يقول كلمته الفاصلة في هذا الأمر، وهو الموثوق من العامة والخاصة، ولقد كانت المعارضة الدينية كفيلة بوأد المشروع في مهده لو تركت على رسلها». اقتباس من (د. عبدالحميد المحادين - الخروج من العتمة). هكذا إذن، كانت أحداث التعليم الأولى في عهد الشيخ عيسى بن علي آل خليفة، وهو

وصول البعثة التربوية المصرية الأولى للتدريس في البحرين عام 1944

الذي جعل ابنه عبدالله يمثّله على أرض الميدان من أجل تحقيق مشروع المدرسة الأولى، الذي كان حاضرًا في المحطات الرئيسة لهذا الحدث، وهو إنشاء أوّل مدرسة نظامية حديثة في البحرين. وهذا ما تجلّى في حضوره يوم الاحتفال بوضع الحجر الأوّل لهذه المدرسة يوم الاثنين الموافق لـ15 نوفمبر 1920. خطب الشيخ عبدالله بن عيسى آل خليفة، أثناء وضع حجر أساس المدرسة، خطابًا مملوءًا بالأمل المشرق، وكانت له دلالاته الخاصة حين قال: «إني أشعر كما تشعرون بأن قلبي يطفح سرورًا وآمالاً كبارًا؛ لأننا غرسنا أول غرس للحياة الصحيحة، وسيكون سروري وسروركم مضاعفا عندما يثمر غرسنا الشهي». بدأت الدراسة الفعلية في مدرسة الهداية الخليفية عام 1921، وهو في يوم السادس من سبتمبر. كما أنه تم تعين أول مدير لها وهو الأستاذ حافظ وهبة، وكان عدد الطلبة الدارسين فيها 140 طالبا وعدد المدرسين 19 أستاذا من عدة جنسيات بحرينية وكويتية وسورية ومصرية ويمنية. اختلفت الروايات بخصوص من أدار مدرسة الهداية في البداية، هل هو حافظ وهبة أم شخص آخر؟ إذ تذكر كتب التاريخ أن الأستاذ عبدالله صدقة دحلان كان أول مدير أدار مدرسة الهداية بعد الافتتاح. وكان الشيخ عبدالله بن عيسى آل خليفة وبدعم من حاكم البحرين آنذاك الشيخ عيسى بن علي آل خليفة، قد لعب دورا مهما في بداية مدرسة الهداية الخيرية منذ مرحلة التأسيس. في الوقت نفسه بينما كان العمل جارياً على تأسيس هذه المدرسة النظامية في البحرين، والتي تولى أيضاً رئاسة مجلس إدارتها الشيخ عبدالله بن عيسى آل خليفة عام 1919، كان العمل جاريا لتأسيس مدرسة لتعليم البنات أيضا، ولكن حدث هذا عام 1926 بعد إزالة معارضة من بعض المحافظين. ساهم الشيخ عبدالله بن عيسى آل خليفة في إرسال أول بعثة من الطلبة للدراسة على حساب الحكومة في الخارج عام 1928 وفي عام 1931 عين كأول وزير للمعارف وخول سلطات واسعة في شئون التعليم كافة حينها.

ما بعد الهداية... ونمط الهداية للتعليم الخيري الأهلي ينتشر في قرى ومدن البحرين

بدأت فكرة التعليم بالاتساع، وفي هذه الفترة أيضا شهد بناء مدارس الهداية في المحرق والحد والرفاع والمنامة. ففتحت مدرسة ابتدائية للبنين في المنامة في عام 1921 وأطلق عليها أيضا اسم الهداية الخليفية. كما فُتحَت مدرستان في مدينتي الحد والرفاع الشرقي في سنة 1927 وحملت أيضا اسم الهداية الخليفية. وبعد سنوات غُيِّرت أسماؤها واحتفظت مدرسة الهداية الحالية في المحرق بالاسم التاريخي لها. وخلال تأسيس التعليم النظامي وخلال بناء مدرسة الهداية الخليفية، قامت اللجنة الأهلية الخيرية المشرفة باستقدام معلمين من المنطقة العربية ومنهم مدير المدرسة (حافظ وهبة) و(عبدالعزيز العتيقي) و(عثمان الحوراني) و(عمر يحيى). كانت بداية انتشار المدارس النظامية صعبة، والمراحل الأولى نحو نظامية التعليم شهدت عقبات عدة، ولكن استطاعت اللجنة الأهلية الخيرية أن تتغلب عليها. محرك آخر ذو أهمية كبرى ساعد في انتشار التعليم بشكل سريع والذي صب في مصلحة ظهور هذه المدارس النظامية الخيرية في المحرق والمنامة، وهو يتعلق بفكر الشيخ عيسى بن علي آل خليفة حاكم البحرين آنذاك. فكانت عنده رؤية عميقة للتعليم، ولا ننسى في هذا السياق المؤازرة من ابنه الشيخ عبدالله بن

عيسى بن علي آل خليفة (رئيس لجنة المعارف حينها) الذي كان داعما للتعليم أيضا والذي شهد عصره تحوّل التعليم من الأهلي الخيري إلى الحكومي الرسمي.

بوادر انحسار تجارة البحر.. وكارثة سنة الطبعة.. ووصول المستشار بلغريف.. وبوادر تدفق النفط:

في حقيقة الأمر، وفق الكتب والمصادر، بدأت آثار تدهور اقتصاد منطقة الخليج التي كانت تعتمد على اللؤلؤ الطبيعي بعد الحرب العالمية الأولى، وخاصة خلال الفترة العشرينيات حتى فترة الأربعينيات. فوفق الإحصائيات الرسمية آنذاك، إذ تقلص عدد القوارب التي تتحرك من أسياف البحرين لاستخراج اللؤلؤ في سنة 1948 إلى 80 قارباً مقارنة بـ1500 قارب في سنة 1833، كانت تجارة اللؤلؤ تعد الصناعة الأولى في الخليج العربي، أيضا لكونها المهنة الأكثر اقتراناً بالمنطقة البحرية. وكانت القوة الشرائية لسكان الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية تعتمد إلى حد كبير على ما يستخرج من هيرات اللؤلؤ. كانت البحرين مركزا مهما لتجارة اللؤلؤ، حيث كان يباع للأسواق العالمية منها، وخاصة الهند. إلا أنه بدأت هذه التجارة في الانحسار، فشكل هذا المحرك الثاني لانشغال أهل البحرين بتطوير التعليم في منتصف العشرينيات، وخاصة بعد وصول المستشار بلغريف إلى البحرين عام 1926. كانت نتائج الحرب العالمية الأولى وظهور التعليم النظامي وتغير نمط التجارة وبوادر اكتشاف النفط في المنطقة، أضف إلى ذلك كارثة الطبعة عام 1925 التي ذهب ضحيتها حوالي 5000 من المهرة الغواصة والمحترفين والسفن الكبيرة.. كلها كانت في الحقيقة المحركات المؤثرة في تحول المجتمع البحريني، من مجتمع يعتمد على تجارة البحر والبستان، إن صَحَّ التعبير، إلى مجتمع يتجه صوب البديل، وهو الصناعة التي تتطلب تعليمًا أكثر حداثة. ووصل في عام 1926 المستشار تشارلز بلغريف إلى البحرين، وبعدها مباشرة في عام 1927 تم أيضا صدور أول تقرير عن التعليم في البحرين وأعده بلغريف.

تعليم البنات الأول.. يرى النور عام 1928

الفتيات في البحرين وفي الخليج بأكمله، كُنَّ شريكات البنين في التعليم، ولم تكن الفتاة بعيدة عن التعليم، فقد سنحت لها فرصة التعليم النظامي بعد أن استشعر الأهالي ضرورة التعليم للبنات كضرورته للبنين. ما إن تم إرساء الأسس الأولية التربوية لتعليم البنين مطلع عام 1927، حتى تم التفكير في تعليم الفتاة وتثقيفها لتضطلع بدورها في المجتمع، إذ هي النصف الآخر المؤثر في المجتمع. وفي البداية، قوبلت فكرة إنشاء مدارس لتعليم البنات بالاحتجاج والرفض من الشارع في تلك الفترة، وخصوصا أن فكرة الإنشاء جاءت من مارجوري بلغريف وهي زوجة المستشار الذي أعلن يومها الحاجة إلى فتح مدارس للبنات. فبدأت في عام 1928م أول مدرسة تعليمية للبنات، وكانت في مدينة المحرق، وسميت أيضا مدرسة الهداية الخليفية للبنات، ومن ثم أطلق عليها اسم مدرسة خديجة الكبرى، وهي تحمل الاسم نفسه حتى هذه اللحظة. كان عدد الطالبات 104 طالبات. وكانت أول مديرة للمدرسة سورية الأصل، ونتيجة للحاجة الملحة إلى جهاز تعليمي، استعانت المدرسة بمجموعة من المدرسات السوريات اللاتي قدمن إلى البحرين لهذه المهمة، وفي عام 1929م تم افتتاح مدرسة أخرى للبنات في المنامة، وأطلق عليها مدرسة الهداية الخليفية في المنامة، ثم تحولت إلى مدرسة عائشة أم المؤمنين. كان عدد طالباتها 51 طالبة، يقوم بتدريسهن 3 مدرسات. في هذا الإطار لا بدّ من ذكر أنه كان للأستاذ عثمان الحوراني، مدير مدرسة الهداية الخليفية، آنذاك في المحرق دور مهم في حث أعضاء مجلس المعارف على فتح مدرسة لتعليم البنات، رغم معارضة بعض الأهالي. وكان أيضا لنائب الحاكم وحرمه والشيخ عبدالله بن عيسى آل خليفة وأعضاء مجلس المعارف والمتعلمين من مؤيدي تعليم اللبنات دور مهم في تعزيز هذا الدور. وقد أسهمت الليدي مارغوري بلغريف ومدرسات بحرينيات وعربيات في تعليم البنات في المدارس. ولا بدَّ من ذكر دور الأستاذة فوزية البيات ووالدتها في قيامهما بدور تطوعي في تعليم البنات حينها.

المدرسة الجعفرية في المنامة عام 1928

أدى اهتمام حكومة البحرين بالتعليم إلى الإسراع في تأسيس المدارس ودور التعليم وانتشارها أيضا في البحرين. ولا ننسى دعم الأهالي وتشجيعهم والمساهمة المالية. لذا فقد تم افتتاح المدرسة الجعفرية في عام 1928. ونظرا إلى صعوبة إيجاد المكان، كان التدريس يقام بشكل مؤقت في بيت الجشي في المنامة. وقد تم بناء المدرسة عن طريق جمع التبرعات من وجهاء المنطقة وأهاليها بعد أن أعطتهم الحكومة قطعة الأرض لبناء المدرسة، وأشرف على بناء هذه المدرسة لجنة من الأهالي. افتتحت المدرسة الجعفرية تحت رعاية الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة. كانت المدرسة الجعفرية، مدرسة خاصة وبعدها تحولت إلى مدرسة تابعة للدولة، وتغير اسم المدرسة الجعفرية في المنامة إلى عدة أسماء. فقد سميت في البداية (المدرسة الجعفرية)، وبعد انتقال مسؤوليتها إلى الحكومة تغير الاسم إلى (المدرسة الخليفية)، ثم إلى (المدرسة الغربية)، وهي

الآن باسم (مدرسة أبو بكر الصديق) في منطقة المنامة. في عام 1928 أيضا، تم افتتاح المدرسة النظامية، وهي المدرسة المباركية العلوية في منطقة الخميس مع حضور بعض المدرسين من العراق. بعدها تم تغيير اسم مدرسة المباركية العلوية في منطقة الخميس إلى مدرسة الخميس الابتدائية للبنين حتى اليوم. هكذا ثبتت أول دعائم التعليم في البحرين، ويتضح من خلال استعراض البدايات الأولى للتعليم مدى التعاون والتكامل بين القطاعين الرسمي للحكم والأهلي الخيري والذي كان له أعظم الأثر في النهضة التعليمية التي حققت أهدافها المرجوة في تلك الفترة.

بعثة طلابية للدراسة في الخارج (الجامعة الأمريكية) في 1928م

في المرحلة التالية ومع ابتعاد علاقات الإنتاج تدريجياً عن النمط التقليدي، ترسخ الشكل النظامي للتعليم في البحرين وباتت البحرين تلعب دوراً تربوياً رياديا في منطقة الخليج على أثر إرسال أول بعثة طلابية للدراسة في الخارج، وكانت إلى الجامعة الأمريكية في عام 1928م. وتزايدت مجاميع الطلبة الخليجيين الذين تقاطروا إلى البحرين للتعلم اعترافاً من الدول المجاورة بموقع البحرين في مجال التربية على الموقع الإقليمي. فأول بعثة طلابية من البحرين إلى الجامعة الأمريكية كانت تتألف من الطلبة: أحمد العمران وعبدالرحمن المعاودة وراشد الزياني وعبدالله بن الشيخ إبراهيم الخليفة وخليفة بن محمد الخليفة وحمد بن عبدالله الخليفة وعبدالعزيز الشملان. أرسل مجلس المعارف بهذه البعثة الطلابية إلى الجامعة الأمريكية ببيروت، ليقوم البحرينيون بدور مهم في التعليم والأصعدة الأخرى عند عودتهم. حدث هذا بدعم مالي من الحكومة، وكان من بينهم الأستاذ أحمد العمران الذي أصبح مديرا للمعارف في سنة 1946، وأول وزير للتعليم بعد الاستقلال، وله إسهامات بارزة في التعليم منذ 1947. إلا أن هذه البعثة رجعت عام 1930 لأسباب اقتصادية. وفي عام 1929 جنت مدرسة الهداية ثمارها وشهدت تخريج أول دفعة من المرحلة الابتدائية من مدرسة الهداية.

تحول مهمة التعليم من اللجنة الخيرية الأهلية إلى الرسمية والناظر فائق أدهم ليتسلّم المعارف في الفترة (1930-1939)

حدث أن اتجهت حكومة البحرين بإدارة مستشارها تشارلز بلجريف إلى الاستعانة بمعلمين لبنانيين، فجاءت البعثة التعليمية اللبنانية الأولى إلى البحرين بين عامي 1931 و1932، وتم استقدام المدرس فائق أدهم الذي كان قد أصبح آنذاك ناظراً لمعارف البحرين. كانت البعثة اللبنانية تتألف من أساتذة أكفاء، هم: ممدوح الداعوق، ومحمد خير الحبال، ونديم حلاق، ونجيب يليق، وفندي الشعار، ومعروف صعب. ولكن نظرًا إلى الصعوبات المالية والإدارية التي واجهت اللجنة المشرفة على التعليم وزيادة أعداد الطلبة والطالبات، فقد تعرضت اللجنة الخيرية الأهلية لعجزين: إداري ومالي، الأمر الذي أدى إلى أن تشرف الحكومة عام 1930م على تولي مسؤولية هذه المدارس، ووضعها تحت إشرافها المباشر. في هذه الفترة تعاقبت على ترسيخ التعليم النظامي طاقات وكفاءات عربية وأجنبية تسلّمت إدارة المعارف وقتها. بدأت بفائق إبراهيم أدهم الذي عين في الفترة من 1930 إلى 1939، وهو من أهالي صيدا في لبنان. عندما عينت حكومة البحرين حينها فائق أدهم ناظرا للمعارف، عمل فائق أدهم على إعادة تنظيم المدارس وساعده في ذلك الداعوق والحبال ونجيب سليق ومعلمون آخرون.

رافد التعليم والتحولات الرئيسة في المجتمع البحريني

هكذا تحولت منظومة التعليم النظامي في البحرين في فترة الأعوام الـ100 الماضية، فقد بدأت بمحاولات أهلية-خيرية من التبرعات والهبات وبدعم في وقتها من الحاكم الشيخ عيسى بن علي آل خليفة. فترة الثلاثينيات وبعد دخول البحرين فترة جديدة باكتشاف النفط، رافد النفط حوَّل التعليم من الخيرية إلى الرسمية، ثم من النمطية إلى التوسعية وتعدد ألوان التعليم مع نهاية الستينيات. جاءت عائدات وفرة النفط خلال فترة السبعينيات فنتجت عنه مؤسسات وأدوات تعليمية تناسب تلك المرحلة الوفيرة من عوائد النفط. بلغ التوسع خلال فترة الثمانينيات مرحلة جديدة لفتح الجامعات والمعاهد الرسمية الوطنية والتي خرَّجت كثيرًا من أبناء البحرين للعمل في مؤسسات المجتمع. جاء نص الميثاق مع الألفية الثانية ليضيف تحول آخر وجانب آخر لتطور التعليم، وهو تأكيد إلزامية التعليم ومجانيته والتوسع في مؤسسات التعليم العالي، ومن ثم تقنين أطر التعليم ووضع آليات لحفظ جودة التعليم في مؤسسات التعليم العالي.

التحولات التاريخية للمكتبات الوقفية الإسلامية

د.محمد مرسي محمد مرسي

إن المكتبات من أهم الوسائل التي تبناها الإنسان من أجل تيسير تداول أوعية المعلومات بين أفراد المجتمع وجماعاته؛ من عمليات نقل للرسائل المعلوماتية من مصادرها إلى المستفيدين منها، عبر سلسلة الإجراءات الفنية والإدارية التي تتمثل في جمع واقتناء وتحليل وتنظيم واختزان واسترجاع تلك الوثائق والأوعية، ومن ثم إيصالها إلى أفراد المجتمع بأيسر السبل وأقل الوقت والجهد.

وانطلاقاً من هذا، فإن المكتبات الوقفية تلتقي جميعها في خدمة أهداف روادها، وتقدم للباحثين مادة علمية لا تتوافر في غيرها، وتضم هذه المكتبات نفائس ونوادر من المخطوطات لا تقدر بثمن، كما لا تقل المطبوعات التي توجد في هذه المكتبات في أهميتها عن المخطوطات التي تملكها، ولعل من أهم ما يميز المكتبات عن غيرها أنها تخدم جميع فئات المجتمع من دون تفريق بين فئة وأخرى، وتحقيقاً لهذا فإن هناك جملة من الأهداف التي تسعى المكتبات الوقفية إلى تحقيقها، منها:

1- نشر الفكر الإسلامي، والإسهام في تنمية المجتمع الإسلامي، وتنمية قدرات أفراده، ونشر الكتاب العربي الإسلامي على نطاق واسع.

2- توفير الوسائل التي تساعد على التعليم الذاتي للفرد والجماعة من خلال أفراد المجتمع.

3- التعرف على وقف الكتب، والمكتبات، ووسائل دعم المكتبات الوقفية.

4- إبراز مكانة الوقف في نشأة المكتبات وتطورها عند المسلمين.

5- تهيئة المكان والوسيلة المناسبة للاستفادة من أوقات الفراغ وتوظيفها لخدمة المجتمع، مثل المشاركة في اللجان، والندوات، والملتقيات.

المبحث الأول: التطور التاريخي للمكتبات الوقفية الإسلامية

تعتبر الأوقاف عبر التاريخ من الأنماط التي شملت قطاعا عريضا من المجتمع، خلفاء وسلاطين وحكام وأمراء، وأثرياء وعلماء ووزراء، وبعض من عامة الناس، والمتتبع للتاريخ الإسلامي يدرك عظم العناية المولاة إلى إنشاء المدارس الوقفية التي انتشرت في أرجاء العالم الإسلامي المعروف؛ إذ كان التسابق نحو إنشائها وإقامتها ظاهرة واضحة للعيان، حتى إن القرى النائية لم تخلو منها، فما بالك بالمدن الكبيرة التي كانت تعج بالمدارس المتنوعة من مثل دور القرآن والحديث ومدارس المذاهب الفقهية، ومدارس الطب، والمدارس الكبيرة الشاملة. ويقدم لنا كتاب النعيمي الذي وضعه في تاريخ مدارس دمشق وحدها صورة رائعة تبرز عناية لا نظير لها في التاريخ بالتعليم والحرص على نشر الثقافة، ومن كان يتولى التدريس فيها من أعلام وأقطاب في مجالات العلم المختلفة، فالكتاب كما يشير مؤلفه في مقدمته كان يهدف من وراء تأليفه ضبط الأماكن التي وقفها بدمشق من ساق الله تعالى الخير على أيديهم وأوقفوا على ذلك أوقافاً دارّة وبالتالي أورد فيه تاريخ مجموعة كبيرة من أسماء المدارس الوقفية في دمشق، فبدأ بدور القرآن ثم الحديث ثم مدارس الأئمة الأربعة الشافعية، فالمالكية، ثم الحنفية، والحنبلية، ثم مدارس الطب، مع تراجم الأعلام الذين تصدروا للتعليم في كل واحدة منها منذ أن أنشئت. (إبراهيم، 1996م، ص163). ولا نجد تاريخاً مؤكداً يحدد لنا بداية الاتجاه نحو هذا النمط من الوقف، ومع ذلك فقد نتلمس هذه البدايات في مكتبة عبدالحكم الجمحي التي أنشاها في مكة المكرمة في القرن الهجري الأول، والتي لا نجد عنها غير الخبر التالي: أخبرني الحرمي، قال حدثنا الزبير، قال: حدثني عبدالرحمن عن عبدالله بن عمرو الجمحي قال: كان عبدالحكم بن عمرو قد اتخذ بيتاً فجعل فيه شطرنجات ودفاتر فيها من كل علم، وجعل في الجدار أوتاداً فمن جاء علق ثيابه على وتد منها ثم جر دفتراً فقرأه أو بعض ما يلعب به مع بعضهم. (محمد، 1417هـ، 89).

وتبرز لنا في القرن الثاني الهجري مؤسسة علمية، هي بيت الحكمة الذي كان من بين أقسامه مكتبة حظيت بعناية مجموعة من خلفاء بني العباس، وإن كان المأمون أكثرهم اهتماماً بها ورعاية لها ودعماً لتنمية مجموعاتها، وذلك عن طريق إيفاد مبعوثين إلى بلاد الروم لجلب الكتب الفلسفية وغيرها، إضافة إلى الاهتمام بالمصنفات العربية لكبار العلماء من مختلف مناطق الخلافة العباسية، ولكن لا نستطيع بحال من الأحوال إدخال مثل هذه المكتبة ضمن المكتبات الوقفية لافتقارنا إلى السند العلمي الصريح في هذا الصدد، وإن كان الهدف من وراء إنشائها كان مساعدة العلماء والباحثين بتوفير أكبر قدر من مصادر المعلومات لهم لتسهيل سبل الدرس والمطالعة والترجمة لمن يرغب في ذلك، فقد كان يتعذر على الناس أن يقفوا على الكتب العلمية النادرة والتي ترجمت من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية... فذلل الخلفاء للناس سبل المطالعة والدرس في بيت الحكمة الذي أنشئ لنشر العلوم والمعارف المنقولة عن الأمم الأخرى...وهذا الهدف يقترب من دون شك من هدف الذين أسهموا في وقف الكتب والمكتبات بشكل صريح

في مرحلة تالية؛ إذ إنه مع ازدهار التأليف، ونشاط الحركة العلمية في العالم الإسلامي وكثرة الدارسين، بدأ الشعور بأهمية توفير الكتب لأكبر عدد من المستفيدين يتعمق في نفوس الحكماء والوزراء والأثرياء، ووجد هؤلاء في الكتاب وسيلة من وسائل العمل الخيري من منطلق الرغبة في إشاعة العلم والتغلب على مصاعب الحصول على الكتب لطلبة العلم في مدن ومناطق معينة، فأدى ذلك إلى ظهور الوقف الخاص بالكتب والمكتبات.

فمن الناس من يوقف كتبه على المسلمين عامة من دون تعيين، فتوضع كتبه في خزانة الجامع، ومنهم من يخصص فيقول أوقفتها على المكان الفلاني أو البلدة الفلانية...إلخ، ومنهم من يترك استعمالها حراً، في حين يضع آخرون شروطاً لاستعمالها وإعارتها كما فعل القاضي ابن حيان الذي منع إعارة كتبه خارج المبنى... وبعضهم وقف كتبه على أهل العلم كما فعل ابن الخشاب. (النملة، 1420هـ، ص563).

وقد انتشرت خزائن الكتب الوقفية في أرجاء العالم الإسلامي منذ القرن الرابع الهجري، لدرجة أننا قلما نجد مكتبة تخلو من كتب موقوفة وأصبحت هذه المكتبات بما فيها من كتب وقفية قبلة لطلاب العلم تعينهم على التزود بكل جديد وتوفر لهم فرص مواكبة الأفكار والآراء المدونة لمؤلفين من أصقاع العالم الإسلامي، وقد بلغ من انتشارها وتوافرها في الأندلس أن أبا حيان النحوي كان يعيب على مشتري الكتب ويقول: الله يرزقك عقلاً تعيش به، أنا أي كتاب أردته استعرته من خزائن الأوقاف. (محمد، 1417هـ، ص93). وللتدليل على ضخامة عدد المكتبات الوقفية وشيوعها نشير إلى أنه كانت في مدينة مرو الشاهجان عشر خزائن للوقف، وذلك في القرن السابع الهجري، يقول عنها ياقوت الحموي:

لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة، منها خزانتان في الجامع إحداها يقال لها العزيزية، وقفها رجل يقال له عزيز الدين أبو بكر عتيق الزنجاني أو عتيق بن أبي بكر، وكان فقاعياً للسلطان سنجر، وكان في أول أمره يبيع الفاكهة والريحان بسوق مرو...وكان فيها إثنا عشر ألف مجلد أو ما يقاربها، والأخرى يقال لها الكمالية... وبها خزانة شرف الملك المستوفي أبي سعد محمد بن منصور في مدرسته... وخزانة أخرى في المدرسة العميدية، وخزانة لمجد الملك أحد الوزراء المتأخرين بها، والخزائن الخانوتية في مدرستها، والضميرية في خانكاه هناك، وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلي مائتا مجلد وأكثر بغير رهن..... (ياقوت، 1324هـ، ص48).

المعوقات التي تواجه المكتبات الوقفية عبر التاريخ:

أولاً: الوعي بالوقف:

من أبرز المعوقات هي الوعي بأهمية الكتاب وأهمية وقفه؛ إذ إن الذين يرغبون في الوقف قد لا يتحمسون لخدمة الكتاب على أنه صدقة جارية أو علم ينتفع به، بقدر ما يتوجهون إلى عمارة المساجد، التي وردت لها آثار صريحة في أهمية بنائها، وعِظَم الجزاء الذي يلقاه من يقوم على بنائها في الدنيا والآخرة، ومنها قول الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم –من بنى مسجداً – قال بكير: حسبت أنه قال يبتغي به وجه الله – بنى الله له مثله في الجنة. رواه البخاري.

ثانياً: الإعراض عن الوقف:

من أهم المعوقات إعراض الناس عن وقف الكتب والمكتبات على المستفيدين، عن طريق إلحاقها بمكتبات حكومية أو أهلية قائمة بحيث تكون متاحة للمستفيدين، بل إن بعض العلماء والمثقفين الذين يكوّنون مكتبات جيدة في منازلهم يتركونها للورثة الذين يضعونها بالكراتين، فتطول بها المدة، وربما تعرضت للرطوبة والحرارة والأرَضية.. كل هذا بسبب إغفال صاحبها عن أن يدرجها في وصيته، ونعلم عن عدد من المكتبات القيِّمة التي تعرّضت لهذا المصير لهذا السبب الذي يدخل فيه شعور بعض الورثة بأنها من التركة التي تخضع لحكم توزيع الإرث، وهي كذلك قبل الوصية بوقفها. وكان من الممكن أن تدخل في حساب الثلث الذي يوصي به صاحبها قبل وفاته، أو يتفق الورثة على حسابها من الثلث بتثمينها مادياً، مع أن قيمتها العلمية لمن يدركونها أعلى بكثير من تثمينها مادياً.

ثالثاً: الجهل العلمي:

ومن المعوقات، عدم التركيز على مفهوم الوقف وأهميته في بناء مجموعات المكتبة.. وبالتالي طرق التعامل مع الكتب والمكتبات التي ترد موقوفة إلى مكتبات عامة أو جامعية بعينها، فلا تكاد تجد لهذا أثراً في المناهج والخطط التي

يُدرّس بها طلبة أقسام المكتبات والمعلومات وطالباتها. فيذكر الوقف على أنه من الوسائل القديمة في بناء مجموعات المكتبة. من هنا تظهر مشكلة التعامل مع المكتبات الموقوفة، بالنظر إليها على أنها مجموعات مثلها في ذلك مثل بقية المجموعات التي ترد إلى المكتبة عن طريق الشراء أو الإهداء أو التبادل، مع عدم إغفال شرط الواقف الذي يُنظر إليه على أنه يمثل المشكلة الفنّية الثانية التي تواجه المكتبات أو الكتب الموقوفة.

رابعاً: شرط الواقف:

شرط الواقف، وهو معتبر شرعاً، قد يكون عقبة في الإفادة من الكتاب أو الكتب الموقوفة، ولا سيما إذا كان الشرط يتعارض مع النظرة الفنية لتنظيم المجموعات؛ إذ قد يشترط الواقف عزل الكتب عن بقية المجموعات الأخرى، وإفراد المكتبة الموقوفة بزاوية خاصة، وربما شَرَط أن يكون الاطلاع عليها مقصوراً على فئة علمية محددة، إما بالعمر أو الجنس، أو الانتماء الثقافي. وهذا يحدُّ من الإفادة منها إفادة فاعلة، ولا سيما إذا علمنا أن وقف الكتب يمكن أن ينظر إليه على أنه من العلم الذي ينتفع به. وهذا هو مراد الواقف منه، إذ إنه يبحث عمّن يستفيد من هذه الكتب التي أفاد هو منها في حياته، أو في فترة من فترات إقباله على القراءة، فلما أحس أنه أعرض عنها لأي سبب، لم ينس أن هناك من يقبل عليها، فأتاحها للآخرين بوقفها عليهم. (ستيفيتش، 1993م، ص239).

خامسًا: الإجراءات الفنية:

ربما طلب الواقف إجراءات فنية خاصة في تهيئة الكتب لا تتفق مع السياسة الفنية التي تتبعها المكتبة، مما يؤثر على سرعة الوصول إلى المعلومات التي تتضمنها المكتبة الموقوفة، ومن الممكن ألا تكون هذه المكتبة الموقوفة قد أُخضعت للإجراءات الفنية من فهرسة وتصنيف، ولكنها لا تخلو من وضع علامات وأختام وأرقام على الكتب، مما يعني سعي المكتبة إلى إعادة النظر في هذه العلامات لإحلال علاماتها التي يُراد لها أن تكون بديلة للعلامات الأولى. وهذا ينتهي بتشويه الكتاب بكثرة ما يُحمّل من رموز. ويَصدق هذا على المكتبات الشخصية الموقوفة بعد طول استخدام من قبل الواقف نفسه. وتختلط هذه العلامات بين القديمة والحديثة.

وقد تكون الكتب الموقوفة قد أخضعت لنظام تصنيف مغاير للنظام الذي تسير عليه المكتبة، وهذا يَصدق على

المكتبات الشخصية التي يعتني بها صاحبها في تنظيمها وتجليدها وصيانتها، كأن تكون الكتب الموقوفة تتبع نظام ديوي العشري، وتطبق المكتبة المستقبلة للكتب الموقوفة نظام مكتبة مجلس الشيوخ الأمريكي. وهذا يعني أن تعيد المكتبة تصنيف هذه الكتب الموقوفة على النظام المتبع لديها. ويدخل في هذا ما تتعرض له الكتب والمكتبات الشخصية المتوقع وقفها إلى الترميزات الاجتهادية التي لا تقوم على نظام بعينه، وإنما هي رموز تكثر على الأغلفة وصفحات العنوان، وليس لها مدلول واضح إلا عند من اجتهد بوضعها على الكتب.

سادسًا: النُّظم والضوابط:

تضطر المكتبات التي تستقبل الكتب الموقوفة إلى إصدار قواعد وتنظيمات خاصة بهذه الكتب الموقوفة، بحسب ما يأتيها من شروط الواقف التي قد تتضمن منع إعارة هذه الكتب خارج المكتبة، أو أن يكون الاطلاع عليها مقصوراً على فئة معينة من المستفيدين؛ كالباحثين والدارسين، وألا تكون هذه الكتب الموقوفة قابلة للتداول بين عامة المستفيدين. وقد يمنع الواقف إعارتها كلها خارج المكتبة، والاكتفاء بالاطلاع عليها في المكتبة، بل ربما سمح بإعارتها إلى شخص ذي سمعة جيدة، أو أن يطلب منه دفع تأمين على الكتاب المراد استعارته، كما فعل ابن خلدون عندما وقف كتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر، فنص في وثيقة الوقف على عدم جواز إعارته خارج المكتبة (إلا إذا كان المستعير شخصاً ذا سمعة جيدة وأميناً، وشريطة أن يدفع رهناً مناسباً، وأن يرد الكتاب في مدة أقصاها شهران) (حمادة، 2001، ص161).

سابعًا: عزل الكتب:

قد تكون ضمن مجموعات المكتبة الموقوفة بعض المواد التي لا تحتمل التداول العام، وربما صُنِّفت ضمن الكتب محدودة الاطلاع، إلا أن الواقف لا يرغب في عزل أي من هذه الكتب عن بعضها. وهذا يحدث إحراجًا للمكتبة والقائمين عليها، فتأتي هذه الضوابط التي تحكم مثل هذه المواقف. ويدخل في هذا أن يكون بين مجموعات المكتبة الموقوفة عدد من المخطوطات، التي تخضع لإجراءات خاصة في التعامل معها من حيث تخزينها وتهويتها وترميمها، فيحتاج هذا العدد من المخطوطات إلى أن يُضمّ إلى قسم المخطوطات في المكتبة، هذا إن كانت المكتبة تحوي قسماً للمخطوطات، ويصدق على مجموعات الدوريات التي تحتويها المكتبة الموقوفة، ويحتاج الأمر إلى أن تُضم إلى قسم الدوريات بالمكتبة.

ثامنًا: السرقة:

ومن مشكلات الكتب الموقوفة تعرضها للسرقة الفردية أو الكليّة، أي أن تتعرّض الكتب للسرقة من الأفراد وبصورة متفرّقة، أو أن تتعرض للسرقة الكلية، كما حصل في بعض المكتبات التراثية التي تعرضت للنهب والسرقة والمصادرة من أعداء المسلمين. وتزخر كتب التراث العربي الإسلامي بالأخبار التي تبيّن مصير الكتب والمكتبات، وقصة رمي الكتب في دجلة ليست منا ببعيد)، ومثلها ما مرّ على مكتبات مرو وساوة، وكذا المغرب الإسلامي في الأندلس (وأشدُّ من السرقة التي تفضي إلى النقل من مكان إلى آخر، كما حصل لقسم كبير من التراث العربي الإسلامي المخطوط، هو أن يقوم الناس بإحراق المكتبات الموقوفة على العلم والعلماء. وفي تاريخ التراث العربي الإسلامي شواهد موثّقة عن صنوف من إحراق الكتب والمكتبات، أو إغراقها). (النشار، 1993م، ص250).

تاسعًا: البيع:

تتعرّض الكتب الموقوفة للبيع غير المشروع، وذلك من بعض ضعاف النفوس العاملين في المكتبات من أمناء المكتبات وخازني الكتب أو غيرهم، أو من المترددين عليها ليس بقصد الإفادة، بل بقصد السرقة المفضية إلى البيع. أما السرقة التي مرت من قبل فإنها تفضي إلى الاحتفاظ بالكتب المسروقة، مما قد يعدُّ مرضاً من الأمراض التي تعتري الإنسان. وقد تتعرّض الكتب الموقوفة للبيع المسوّغ شرعاً، عند بعض علماء الأمة، وذلك قصداً إلى استبدال غيرها بها، نظراً إلى ما يكون قد طرأ عليها من تقادم في المعلومات أو في الشكل الخارجي لها. ولعلماء المسلمين في هذا التوجُّه آراء مبسوطة في كتب الفقه، وفي الكتب التي عالجت الوقف، وناقشت هذه القضايا عن معرفة وعلم. وإذا بيعت ولم يُستبدل بها غيرها فإن لهذا أيضاً حكماً آخر. وسمي هذا بالاغتصاب، على أن الاغتصاب قد يشمل الوجهين؛ إذ وُجد من المهتمين بدراسة الوقف ومصيره من أطلق عليه مصطلح الاغتصاب، إما عن طريق الاستبدال، أو بطرق أخرى غير الاستبدال.

عاشرًا: الكوارث:

تتعرض المكتبات الوقفية، مثلما تتعرض غيرها من المكتبات، للعوارض الكونية والكوارث الطبيعية؛ كالزلازل التي تتعرّض لها بعض بلاد المسلمين بين الفينة والأخرى. وقد تعرّضت مصر، وهي غنية بالمكتبات الوقفية، لهذه الكوارث أكثر من مرة، ويذكر السيّد النشّار أن المكتبات تأثرت بالزلازل التي مرّت على مصر في العصر المملوكي سنة 702هـ / 1302م، وما تبعها من فيضانات أتت على المساجد والمدارس والبيوت، وفيها جميعها مكتبات).

حادي عشر: التقانة:

ربما أسهمت التقانة الحديثة في نقل المعلومات في مزاحمة الكتاب الموقوف، ولا سيما إذا تعرّض هذا الكتاب للنسخ الآلي، وأضحى قابلاً للإفادة منه آلياً بإدخال المكتبة كلها في نظام الأقراص المدمجة التي ربما استوعب الواحد منها المكتبة الموقوفة كلها. وربما هذا يصدق على النسخ المنقولة من الورق إلى الأقراص المدمجة، قبل أن يتم نقل الكتب الموقوفة إلى المكتبة. وعلى أي حال، ومهما نظر المعنيون إلى أهمية هذا العامل في اختزان المعلومات، فإنه ليس مؤثراً قوياً؛ إذ سيظل للكتاب المطبوع أثره في نقل المعلومة، مهما زادت الأوعية الحديثة في مزاحمته.

المبحث الثاني: مراحل التحولات التاريخية للمكتبات الوقفية الإسلامية

مع بداية القرن الرابع قبل الميلاد أصبح من المألوف جداً أن يجمع العلماء والأدباء مكتبات خاصة بهم، ومن أمثلة ذلك إشارة وردت في إحدى كوميديات أرستوفان، تدل على احتمال وجود مكتبة يوريبيدس. أما في العصر الإسلامي فقد ظهرت المكتبات بعد انتشار الدين واهتمام المسلمين بالعلم والمعرفة، لذا ظهرت المكتبات كنتيجة طبيعية للحياة الجديدة التي أوجدها المسلمون أنفسهم، فكانت تعكس واقعهم الجديد واهتمامهم وشغفهم بالمعرفة الإنسانية ونشرهم لمبادئ الدين والعقيدة الإسلامية، ولقد مرّت المرحلة التاريخية للمكتبات الوقفية الإسلامية بمرحلتين هما:

أولاً: مرحلة تدهور المكتبات:

في هذه المرحلة واجهت أغلب الكتب والمكتبات الوقفية مصيراً مؤلماً ينم عن جحود ونكران المجتمعات التي قامت فيها، ذلك لأن أغلب ما حل بها من تفريط مصدره أفراد أو جماعات استفادت هي أو استفاد أسلافها من محتوياتها، إضافة إلى أن بعضها نكب من جزاء الغزو الخارجي أو بفعل الكوارث الطبيعية، وخاصة الحرائق.

ولو حاولنا تصنيف الأسباب التي تولد عنها التدمير والإساءة اللذين حلا بهذا النمط الثقافي الذي كان يقوم على الذات المحبة للآخرين، المشبعة بروح الفضل والرغبة في إقامة مجتمع راقٍ، فيه العلم وتشع منه أنوار الثقافة، فسنجدها تتمثل في التالي:

1- الفتن والقلاقل والتغيرات السياسية:

ولعلها كانت أكبر عنصر شر استغل في القضاء على البنية الثقافية العربية، وعلى رأسها تدمير المكتبات، فكان النهب والسلب والسرقة والحرق من الطرق التي كان المشاركون في الفتن أو عامة الناس من الجهلاء يلجأون إليها في التعامل مع الكتب والمكتبات.

فمكتبة سابور بن أردشير التي عرفت بدار العلم، والتي قامت بدور ثقافي جليل على مدي سبعين عاماً، أحرقت عند مجئ طغرلبك إلى بغداد، ورغم أن الأخبار التي رويت عن حرقها لا تشير إلى أنه كان عملاً مقصوداً، إلا أننا نشعر من صيغة الخبر كما أورده ابن الأثير بأن بغداد في اليوم الذي شب فيه الحريق بدار العلم كانت قد تعرضت لأعمال تخريبية استخدم فيها الحريق كنوع من الإرهاب والانتقام، وهناك خلاف على السنة التي وقع فيها هذا الحدث المفجع؛ فابن الجوزي يجعله ضمن حوادث سنة 450هـ بينما جعله ابن الأثير ضمن حوادث سنة 451هـ، وقد يكون الخلاف نتيجة وقوعه في نهاية عام 450هـ، ويشعرنا نص ابن الجوزي بالعمد في إحراقها؛ إذ يقول (وأحرقت عند مجئ طغرلبك في سنة خمسين وأربعمائة) أما نص ابن الأثير فيعبر عن الحدث بصيغة تُشعر بأن ما وقع كان قضاء وقدراً في جزء منه، بينما يوحي بأن الأمر كان في معرض فتنة حادثة لم يستطع الحاكم خلالها السيطرة على الأمور (حيدر أباد، 1359هـ، ص22).

في هذه السنة احترقت بغداد: والكرخ وغيره وبين السورين واحترقت فيه خزانة الكتب التي أوقفها أردشير الوزير ونهبت بعض كتبها، وجاء عميد الدولة الكندري

صورة تخيلية لإحراق مكتبة القسطنطينية عام 473م التي فقدت 120 ألف مخطوطة.

فاختار من الكتب خيرها، وكان بها عشرة آلاف مجلد وأربعمائة مجلد من أصناف العلوم، فيها مائة مصحف بخطوط بني مقلة، وكانت العامة قد نهبوا بعضها لمّا وقع الحريق فأزالهم عميد الملك، وقعد يختارها، فحُسب ذلك إلى سوء سيرته وفساد اختياره، وشتان بين فعله وفعل نظام الملك الذي عمّر المدارس... ووقف الكتب. ومن هنا فإن خزانة سابور أو دار العلم كما نستخلص من رواية ابن الأثير تعرضت للحريق والنهب، نتيجة سوء القصد والتعمد في تخريبها، نشعر به من خلال ما قام به عميد الملك الكندرى الذي قد يكون من المتسببين في ذلك العمل الإجرامي، فهو لم يلجأ إلى إخماد الحريق، ولكنه أبعد العامة، وجلس يختار لنفسه ما يشاء من الكتب التي سَلِمت من الحريق.

وما حل بدار العلم في بغداد وقع لخزانة الكتب في حلب في حدود سنة 460هـ، أي بعد عشرة أعوام تقريباً؛ فقد دفع الصلف والجهل وحب الانتقام الخلفية الفاطمي المستنصر إلى إحراقها، أما السبب فقد ربطه الذهبي بمصنف لأبي الحسين الحلبي ثابت بن أسلم، وكان من فقهاء الشّيعة، ألف كتابًا كشف فيه عوار الإسماعلية وبدء دعوتهم، فحمل إلى مصر وصلبه المستنصر وأُحرقت لذلك خزانة الكتب بحلب وكان فيها عشرة آلاف مجلد. (ابن كثير، 1977م، ص136).

وهكذا نجد أنه ما بين 451 حتى 483 هجرية أُحرقت ثلاث مكتبات كبرى بسبب أحداث سياسية وفتن تخريبية، وإذا كنا قد عرفنا مجموع ما كان في مكتبتي حلب وبغداد، فإن الإشارة إلى مكتبة البصرة بأنها كانت تضم مجموعة وقفية لم يُر في الإسلام مثلها، قد يدفع إلى جعل متوسط ما كانت تضمه هو عشرة آلاف مجلد أيضاً، وبالتالي فإن أكثر من ثلاثين ألف مجلد من نفائس الكتب وذخائرها مما كان قد جُعل لعامة الناس في دور الكتب التي أُسست لرفع المستوى الثقافي قد دُمرت، وبالتالي حرم القارئ الفرد من مصدر فكري مهم كان يلجأ إليه.

وأحرقت جحافل التتار والمغول عندما اكتسحت الأراضي الإسلامية مكتبات كان من بينها مكتبة ساوة، التي يقول ياقوت إنه في سنة 617هـ، كان مما عملوه من تخريب وتدمير إحراقهم لتلك المكتبة التي يصفها بأنها لم يكن في الدنيا أعظم منها. (ياقوت، 1324هـ، ص23).

وإذا كان الحرق هو المصير الذي واجهته تلك المكتبات، فإن مكتبة القصر التي قد يقصد بها دار الحكمة التي أسسها الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله في القاهرة، واجهت مصيراً أقل قسوة، وإن كان مصيراً سيئاً أيضاً، فبعد استيلاء صلاح الدين الأيوبي على مصر، كان مما عمله أن مكّن بعض أفراد حاشيته من الاستيلاء على نفائس كتبها، فأعطى القاضي (من الكتب ما أراد) وعرض بعضها للبيع، فقد أشار البنداري إلى جانب من المصير المؤلم الذي آلت إليه تلك المكتبة عندما قال:

كان لبيع الكتب في القصر كل أسبوع يومان، وهي تباع بالمجان وبأرخص الأثمان.. فقيل للأمير بهاء الدين قراقوش متولي القصر والحال والعاقد للأمر: هذه الكتب قد عاث فيها العث وتساوى سمينها والغث ولا غنى عن تهويتها ونفضها وإخراجها من بيوت الخزانة إلى أرضها، وهو تركي لا خبرة له بالكتب ولم يَدْر أن في نفضها انفضاضها وأن في تصحيحها إمراضها.. وكان مقصود دلالي الكتب أن يوكسوها ويخرموها ويعكسوها فأخرجت، وهي أكثر من مائة ألف، من أماكنها وغُرّبت من مساكنها... وكان فيها من كتب الأمصار والتواريخ الكبار ما يشمل كل كتاب على خمسين أو ستين مجلداً، إذا فقد منها جزء لا يخلف أبداً، فاختلطت، فكان الدلال يخرج عشرة عشرة من كل فن كتباً مبتسرة فتسام بالدون وتباع بالهون، والدلال يعرف كل شدة وما فيها من عدة، ويعلم أن عنده من أجناسها وأنواعها، وقد شارك غيره في ابتياعها حتى إذا لفق كتاباً قد تقوم عليه بعشرة باعه بعد ذلك لنفسه بمائة. (البنداري، 1971م، ص235).

ويقال إن بيع محتويات القصور الفاطمية استمر عشر سنوات، ولعل الأمر شمل ما احتوته المكتبة أيضاً، والتي قيل إنها كانت تضم مليونا وستمائة ألف كتاب، وهو رقم مبالغ فيه بالطبع، والأقرب إلى الواقع ما قيل إن محتوياتها كانت تتراوح ما بين مائة ألف ومائة وعشرين ألف مجلد، وقد أخذ منها صلاح الدين ما حمله على ثمانية جمال إلي الشام. (ابن الفراق، 1969م، ص167).

وهكذا تبدد تراث مهم حفظ في تلك المكتبة وتشتت بدداً، بيعاً على تجار الكتب، وعطاء لبعض العلماء، إضافة إلى ما أخذه صلاح الدين لنفسه، وهذا الموقف يُستغرب من صلاح الدين الذي عرف بجهاده ومواقفه المشهودة في الذود عن حياض الإسلام، ولكن يبدو أنه وقع تحت تأثير مستشارين لم يحسنوا إسداء النصح إليه، فكان ما كان ونهبت مكتبة الصالحية في غزوة قازان للشام وضاع كثيرٌ من محتوياتها.

وتسبب الخلاف السياسي وحب الانتقام والوشاية في إقدام السلطان الناصر فرج على هدم المدرسة الجمالية، ونظر في كتبها الوقفية فأقر منها كتباً كَتب عليها ما ينص على وقفه لها وحمل كثيراً من كتبها إلى القلعة... (المقريزي، 1969م، ص403).

وعقب الفتح العثماني لمصر...سطا الوزراء على كتب المدارس مثل المحمودية والمؤيدية والصرغتمشية ونقلوها عندهم ووضعوا أيديهم عليها ولم يعرفوا الحرام من الحلال في ذلك، كما نهب العثمانيون خلال حكمهم للحجاز كثيرا من الكتب التي كانت في المكتبات الوقفية، وعندما تسلط العجم على بغداد قبل العثمانيين امتدت أيدي العبث والخراب إلى كنوز خزانة الكتب التي كانت في جامع الإمام أبي حنيفة في بغداد التي تعتبر من أقدم مكتبات المساجد والتي وقف فيها الطبيب ابن جزلة (الجبوري، 1969م، ص101).

2- استغلال الكتب الموقوفة

ونهبها من قبل بعض العلماء:

إن بعض رجال العلم قد أسهموا في تدمير بنية المكتبة العربية التي شُيّدت على الوقف العام، ونهبوا نفائسها لأنفسهم وحجبوها عن عامة القراء. فقد كان عنده من الكتب ما لا يدخل تحت الحصر، منها ما هو ملكه، ومنها ما هو من أوقاف المدارسولا سيما الفاضلية ولم يتورع صالح بن عمر الكتاني، والذي وُصف بأنه كان عالما فاضلاً درس في مدارس كثيرة بالقاهرة، من المشاركة في نهب كتب الأوقاف، فرغم وصفه بالفضل وعلو المكانة إلا أنه خلف بعد موته دنيا طائلة وكتباً جمّة من جملتها من أوقاف المدارس ونحوها ما يزيد على ألف مجلد (السخاوي، د.ت، ص181).

ومن أسوأ تلك النماذج المستغلة القاضي محب الدين أبو الفضل محمد بن محمد الشهاب ابن الشحنة، والذي وصفه السخاوي بأنه كان مستغلا لمنصبه في القضاء، حتى أنه استنزل الشهاب ابن العيني من تصوف كان باسمه

في الأشرقية الجديدة، والبدري بن عبيدالله من الإعادة بالصرغتمشية لولده الصغير... وزوج ابنه الصغير بابنة العضدي شبح الظاهرية ليتوصل بالتزويج والتصوف والنزول إلى أخذ المشيخة بكل من الأماكن الثلاثة المعينة... وأكثر من تسليط ابن عبيدالله على خازن المحمودية حافظ الدين ابن الجلالي لينزل له عنها فما سمح، فصار يناكده ويتمقته بما ضعف الخازن عن حمله ولا سيما وهو نائبه في القضاء، ولم يسعفه إلا أن عزل نفسه عن النيابة، هذا مع أنه حمل له من كتبها ما ينوف على مائة مجلد، (التيمي، 1403هـ، ص319).

ولم يختلف سلوك قاضي القضاة بالديار المصرية أحمد بن بدر الدين بن شعبان عن سلوك ابن الشحنة؛ فقد ذكر أنه كانت عنده من الكتب النفيسة ما ينوف على أربعين ألف مجلد. وأكثرها من كتب الأوقاف وضع يد عليها، ومنع أهل العلم من النظر إليها، وطالت الأيام ومضى عليها أعوام ونُسيت عنده وغيّر شروطها، ومما يستدل به من كونها وقفاً من أوائلها وأواخرها، وزاد ونقص، وصارت كلها ملكاً له في الظاهر، ولم يخف الله ولا اليوم الآخر.

وشارك جملة من العلماء في السطو على أوقاف المدرسة الضيائية التي كانت تحفل بنفائس لا نظير لها؛ فالقاضي علاء الدين بن مغلي عندما احتاج إلى كتاب الخلاف لأبي يعلي، قيل له إنه لا يوجد إلا في الضيائية، فأرسل في طلبه، فقام خازن المكتبة ناصر الدين بن زريق الذي يذكر ابن حجر أنه ما رأى في بلاد الشام من يستحق اسم الحافظ غيره، فجمع مجلداته في قفتين وأرسلها إليه، ومن ثم انفرط أمر المكتبة وطمع الناس فيها. ثم لما جاء تمر وذهب، زاد انفراط حالها، فجاء ابن حجر وأخذ منها عدة أحمال، ثم جاء الحافظ شمس الدين بن ناصر الدين فأخذ منها، ثم جاء قطب الدين الخيضري فأخذ منها.

ثم إن القاضي ناصر الدين بن زريق الثاني استوعب أحاسن ما فيها، وشارك الفقهاء في تقويض بنية المكتبة الفاضلية، فأسهموا في نكبتها عندما تداولت أيديهم عليها بالعادية حتى تفرقت. ويعجب المرء حقيقة من هذا السلوك الأناني الذي سلكه أمثال أولئك العلماء والحفّاظ والقضاة، وكيف أنهم ساعدوا على تقويض أهم ركن من أركان الثقافة العربية قام على الوقف بهدف إشاعة العلم وتمكين جميع الأفراد من الاستفادة منه، فوضعوا أنفسهم بذلك في خندق واحد مع الغزاة وجهله الناس الذين كانوا يستغلون تضلع الأمن لينقضُّوا على دور الكتب لنهبها وإحراقها، وبالتالي حرمان جماهير عريضة من المستفيدين من ذخائرها ونفائسها.

3- تفريط المشرفين على المكتبات وسوء إدارتهم:

وكان لبعض المشرفين على المكتبات والكتب الوقفية دور مباشر في خلخلة بنيتها والإساءة إلى هدفها السامي؛ وذلك عن طريق التهاون في أداء الرسالة الموكلة إليهم، أو المشاركة في استغلال محتوياتها عن طريق تسهيل سطوها ونهبها أو إعارتها من دون ضمان لبعض المتنفذين رغبة في الوصول إلى أغراض دنيوية عن طريقهم. وقد مر بنا من قبل ما وقع من خازني المحمودية: السراج عمر، والفخر عثمان؛ إذ أساء الأول، وعندما اكتُشف أمره عُزل، وعقبه جاء الثاني وكان منضبطاً، ولكنه كان مجاملاً فيما يبدو ففُقد من المكتبة أثناء إشرافه عليها ما يقرب من أربعمائة مجلد، فعُزل أيضاً وغُرِّم قيمة المفقود من الكتب. (السخاوي، د.ت، ص182).

ومن الكتب الوقفية التي تعرضت للنهب مجموعة أبي اليمن الكندي، وكان عددها سبعمائة وواحد وستون مجلداً، وقفها على معتقه نجيب الدين ياقوت، على العلماء في الحديث والفقه واللغة وغير ذلك، وجعلها في خزانة كبيرة في مقصورة ابن سنان بالجامع الأموي، ثم إن هذه الكتب تفرقت وتم بيع كثير منها ولم يبق بالخزانة المشار إليها إلا القليل الرَّث. (ابن كثير، 1977م، ص139).

وأدى سوء الوضع الإداري في مكتبة المدرسة الفاضلية، إضافة إلى الظروف الاقتصادية الصَّعبة التي مرت بمصر في عام 694 هجرية، إلى قيام الطلبة بسرقة كتبها فصاروا يبيعون كل مجلد برغيف خبز؛ حتى ذهب معظم ما كان فيها من الكتب، وتعرضت مكتبة المدرسة الشهابية لظروف سيئة فيما يبدو، مما اضطر القاضي إلى الإخلال بشرط الواقف الذي اشترط أن تكون في خزانة أمام بيته؛ إذا إنه عندما خاف عليها، أمر بحملها ووضعها في خزانة أخرى في بيت على باب المدرسة، وقد أورد الخبر ابن فرحون وختمه بما يشعر بسوء الحال؛ إذ قال: وأصلح الله أمرها ورد إليها حالها (ابن فرحون، 1093هـ، ص54).

دار الكتب المصرية

وفرَّط الملك الصالح المنصور في الكتب التي وقفها والده على المدرسة التي أسّسها، فباعها إلى جمال الدين الاستادار بمبلغ ستمائة دينار، رغم أنها جميعها كانت تضم في أولها الإشهاد على الملك الأشرف بوقفها في مدرسته، ولعل من حسن الطالع أن هذه الكتب وُقفت من جديد بالمدرسة التي أسسها الاستادار الذي كان حفيا بها. وكان إبراهيم بن عمر بن موسى صارم الدين النابتي صاحب الحديدة قد اقتنى كتباً كثيرة ووقفها بعد موته.. ولكن زوج ابنته المقبول أبي بكر الزيلعي استولى عليها وحملها إلى قريته اللحية ووضعها في خزانة، ولم يمكّن أحدا من الاستفادة منها، فأقدم على جرمين بصنيعه المقيت الذي يدلل على دناءة وسوء قصد وبُعد عن حب الخير. وأبت سيدة فاضلة تنامى في داخلها حس اجتماعي رفيع إلا أن تسهم في العمل على رفع المستوى الثقافي والعلمي في منطقتها، فكان أن وقفت كتبها على طلبة العلم، وتلكم هي السيدة فاطمة بنت حمد الفضيلي الحنبلي الزبيرية التي كانت تعرف بالشيخة الفضلية، والتي توفيت في عام 1247، ومما يذكر أنها كتبت كتباً كثيرة في فنون شتى وخطها حسن، وصار لها همّة في جمع الكتب، فجمعت كتباً جليلة في سائر الفنون، ووقفت كتبها جميعها على طلبة العلم من الحنابلة، وجعلت الناظر عليها بلديها التقي الصالح شيخنا الشيخ محمد الهديبي، فكانت عنده إلى أن أراد النقلة إلى المدينة، فتورع عن إخراجها من مكة، فجعلها عند خادمته شائعة بنت النجار وأولادها، ثم أرادت التحول إلى المدينة أيضاً فأشارت عليها بأن تبقيها في مكة كما فعل شيخنا فغلب عليها أولادها، وقالوا إن الشيخة الواقفة لم تشترط ذلك، وذهبوا بها معهم، فتوفاهم الله تعالى وذهبت شذر مذر إلا أقلها كان عندي، فأبيت إخراجه من مكة فبقي والحمد لله. (مراد، 1986م، ص388).

وتعرضت مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة، في ظل إدارات متعاقبة، للسرقة والنهب، فكان أن فقدت جملة من نفائس مخطوطاتها؛ من ذلك:

1- مصحف مكتوب على رق نعام بخط أندلسي، مذهب في آخره، وهو بخط عبدالرحمن بن البطليوس سنة 488هـ، 905م.

2- مسند أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز، وهو الآن في مكتبة المتحف البريطاني.

3- أمر شريف باشا بنقل ستين كتابا من المكتبة،

مكتبة الأوقاف في حلب

وأن يذكر أمام أسماء هذه الكتب في القوائم إشارة (م) التي تعني أنه مفقود، وهذه المجموعة لا تزال محفوظة في استانبول. (الآلوسي، 1983م، ص38).

4- كتاب في تاريخ المغرب يقع في عشرة مجلدات.

5- استطاع أحد الأشخاص استنساخ مخطوط داخل المكتبة، ثم ختم منسوخه بخاتم المكتبة وسرق الأصل.

6- بيعت مجموعة كبيرة من المخطوطات في عهد بعض الأمناء الذين ضعفت نفوسهم عن القيام بواجب الأمانة.

وتدل المجموعات الكبيرة من المخطوطات التي تحمل نصوصاً وقفية، والمحفوظة حالياً في مكتبات في أرجاء المعمورة خارج الأماكن التي وقفت عليها، على عظم ما أصاب وقف الكتب من بلاء عبر القرون، ولا يزال سلب الكتب الوقفية والعبث بها جارياً حتى اليوم؛ إذ نجد ضمن ما يُتاجر به من المخطوطات العربية في متاجر بيع الكتب النادرة في أوروبا أو مع تجار المخطوطات في العالم العربي وتركيا، مجموعات هي من أوقاف الأسر أو الجوامع والمدارس في تركيا وبعض بلدان العالم العربي.

ولم يعد أمراً غريباً أن نجد في مكتبة تشيستربيتي مخطوطا نفيسا كان وقفاً في جامع صغير من جوامع القاهرة، أو أن نقف على نسخة فريدة من مخطوط في التاريخ بالمتحف البريطاني يحمل نصاً يدلل على أنه كان وقفا في تونس.

ثانياً: مرحلة ازدهار المكتبات الوقفية:

اليوم، مناطق كثيرة من العالم العربي وبعض الدول الإسلامية تشهد ازدهارا في المكتبات الوقفية، وذلك ضمن إطار العناية بتوفير أوعية المعلومات المساندة للبحث والتنمية للمعرفة الإنسانية لدى طلابها، وحرصا على ادخار ما تبقى من تراث نال منه الإهمال على مدى زمن طويل، مما أدى إلى ضياع جانب كبير منه. وبالدليل على ضخامة حجم الكتب الوقفية في مجموعات المكتبات المعاصرة؛ منها: -

1-دار الكتب المصرية

أنشأت في عام 1286م، وضمت مجموعة كبيرة من كتب الأوقاف بناء على أمر الخديوي إلى المرحوم علي مبارك ناظر المعارف في ذلك الوقت، ونستخلص من دراسة وُضعت حول تاريخ هذه المكتبة مجموعة من

المؤشرات التي توضح دور الكتب الوقفية في بناء مجموعة المخطوطات فيها؛ ففي سنة 1876م ضمت إليها مكتبتا قولة ومصطفى فاضل وكانتا تحتويان على مجموعات طبية من المخطوطات قدُّرت بحوالي 3458 مخطوطا وقام علي مبارك بمجهود كبير لجمع المخطوطات النفيسة إلى هذه المكتبة من المساجد والأضرحة ودور العلم، وبلغ ما جمعه قرابة 30 ألف مجلد بين مخطوط ومطبوع. ثم ضمت إليها فيما بعد مكتبات.

2- مكتبة الأسد الوطنية

كما أن مجموعة المخطوطات التي جعلت في المكتبة الظاهرية في دمشق، التي يصل عددها إلى ثلاثة عشر ألف مخطوطة وجمعت منذ عام 1296 هجرية بمساع من طاهر الجزائري الذي لاحظ ضياع كتب الوقف فشكاً إلى رئيس الجمعية الخيرية بدمشق مما أدى إلى جمع الكتب الوقفية إبان حكم والي دمشق مدحت باشا، واستمر هذا الجمع في عهد أحمد أحمدي باشا الذي عُيِّن واليا بعد مدحت باشا، وقد ضمت إلى هذه المكتبة في عام 1299 هجرية عشر مكتبات.

3- مكتبة الأوقاف العامة في بغداد

أما مجموعة المخطوطات التي جُمعت في مكتبة الأوقاف العامة في بغداد فهي ثمرة جهد كبير بذل من أجل تجميع كتب الأوقاف في العراق التي تعرضت للنهب والإهمال، فكان أن جاء مشروع هذه المكتبة. ويوضح لنا (الجابوري) مراحل التفكير في تأسيس هذه المكتبة، فيذكر أن وزير الأوقاف في الحكومة العراقية كان أول من فكر في إنشاء مكتبة تابعة لوزارته تجمع فيها الكتب المبعثرة في مساجد وجوامع بغداد وساعده على تنفيذ الفكرة تحمس عبداللطيف ثنيان مدير أوقاف بغداد. ولكن المشروع توقف بانتهاء فترة عمل المنديل ثم الثنيان، وعادت الفكرة مرة أخرى عندما تولى محمد أمين العباسي وزارة الأوقاف ولكنه ترك منصبة قبل الشروع في التنفيذ، وفي عهد أحمد الداود الذي تولى الوزارة عقب العباسي تألفت لجنة جمعت الكتب من مساجد بغداد وجوامعها وتكاياها ومن ثم برزت إلى الوجود مكتبة الأوقاف العامة التي ضمت نفائس ما وقفه أهل الخير في القرون السابقة وأنقذ قيام هذه المكتبة مجموعة كبيرة من المخطوطات النفيسة من العبث والضياع والدمار.

4- مكتبة الملك عبدالعزيز بالمدينة

تأسست عام 1380هـ /1960م باسم مكتبة المدينة المنورة العامة، وكان لجعفر فقيه الفضل الأكبر في ذلك، ومن بين المكتبات الوقفية التي ضمت إليها: -مكتبة المدرسة القازانية -مكتبة المدرسة العرفانية -مكتبة المدرسة الإحسانية -مكتبة مدرسة الشفاء -مكتبة مدرسة كيلي ناظري.

كما أن من بين ما ضمته الكتب التي وقفها إبراهيم بن سعد الله الختني ومكتبة صالح الجعفري العلوي، ويبلغ عدد المخطوطات فيها حوالي 7445 مخطوطة، وقد حُوِّلت مجموعة مكتبة المدينة المنورة العامة إلى مكتبة الملك عبدالعزيز العامة التي تأسست عام 1403هـ.

5- مكتبة الأوقاف في حلب

تكونت من مجموعة وقفية متناثرة في مدارس وغيرها، منها -المدرسة العثمانية -المدرسة الصديقية.

وقد وصل عدد ما احتوت علية من مخطوطات عام 1976م 5560 مخطوطا، ثم نقلت هذه المكتبة لتُضَم إلى مكتبة مخطوطات معهد التراث العربي في جامعة حلب، ثم نُقلت جميع المخطوطات الأصلية إلى مكتبة الأسد الوطنية في دمشق.

6- مكتبة الأوقاف في الموصل

افتتحت عام 1976م وتضم 35 مجموعة من المخطوطات التي كانت تُكَوِّن مكتبات في مدارس ومساجد، وهناك نماذج أخرى كثيرة في دول عربية مثل المغرب وتونس والجزائر واليمن، حيث جرى تجميع المخطوطات الوطنية في مكتبات حديثة. وهكذا نجد أن الصرح الشامخ الذي شيده الأبرار المخلصون على مدى قرون ليصبح الكتاب غذاء للإنسان في كل رقعة يُنطق فيها بالعربية تهاوى ودُمِرَ ونُهِبَ؛ فأصبح من غير المستغرب أن تكون كتب المستنصر التي وقفها الخليفة المستنصر بالله وغيره من العلماء الأجلاء موزعة في مكتبات أجنبية في شتى أنحاء العالم. ومن يجوب مكتبات العالم وخاصة في أوروبا سيقف على مخطوطات كانت في مدارس وجوامع ومكتبات عربية خذلها الجهل والإغراق في الكسل والاستسلام للسقوط فنقلت أكداسا إلى أماكنها الجديدة لتصبح من مفاخر المكتبات التي حلت فيها في العالم الغربي.

المبحث الثالث

متطلبات التطور المستقبلي للمكتبات الوقفية الإسلامية

أدّى التطور الكبير في نظم المعلومات إلى تأثر الأنظمة المكتبية بشكل كبير جداً، وظهور العديد من المفاهيم الجديدة مثل النشر الإلكتروني، وكذلك المكتبات الرقمية، وقد أثّر ظهور أنظمة المعلومات على جميع المستويات المكتبية سواء في الاستراتجيات الخاصة بالمكتبة ككل أو على أنظمة العمل كما أشار دونالد كينج بوجود دور مهم سوف تقوم به نظم الاسترجاع وعمليات النشر الإلكتروني في الخدمات المكتبية، وسوف نعرض فيما يلي لبعض المتغيرات التي أحدثتها أنظمة المعلومات في البيئة المكتبية. (perez،2000،p.33)

1- المتغيرات في الاستراتيجيات الكلية للمكتبات:

حيث إن التوجهات الاستراتيجية للمكتبة قد تغيرت بسبب تأثرها بالظروف المحيطة بها، فلم تعد تقتصر الخدمة المكتبية على مجرد توفير الأوعية التي تحتوي على المعلومات، ولكن أيضا أصبح من المهم تطوير خدماتها لتشمل الخدمة المكتبية المتواكبة مع التغيرات الرقمية الهائلة والاطراد المتضاعف في المعلومات المتاحة.

2- المتغيرات في سياسة تطوير المجموعات (التزويد):

حدث تغير جوهري في سياسة التزويد وتطوير المقتنيات الخاصة بالمكتبة، حيث أصبح من السهل البحث في جميع القوائم التي تصدرها دور النشر. وكذلك تغير مفهوم الاقتناء واستُبدل بمفهوم الوصول؛ حيث إن المكتبات أصبحت لا تركز على مجرد اقتناء المجموعات الاقتناء المادي، ولكن تسعى إلى إتاحتها من خلال الاشتراك في قواعد البيانات أو النشرات العلمية الخاصة بالجهات العلمية من دون الحاجة إلى وجود تلك المجموعات وجوداً مادياً داخل المكتبة، مما أدى إلى سهولة الوصول إلى المعلومات، وكذلك تحديثها وانخفاض كلفة المفاوضات الخاصة بالشراء، كذلك فإنه يمكن إجراء المعاملات الخاصة بالشراء من خلال شبكة المعلومات.

3- المتغيرات المتعلقة بطرق البحث:

لقد أصبح من السهل الوصول إلى المعلومات داخل المكتبة، حيث أتاحت أنظمة المعلومات أنظمة البحث داخل قواعد البيانات الخاصة بالمكتبة، وكذلك سهولة الوصول إلى المعلومات وتحديد المصادر واستبدال أساليب التكشيف التقليدية بقواعد البيانات الإلكترونية، مما أدى إلى سرعة الوصول إلى المعلومات وتضييق نتائج البحث بما يوفر وقت الباحث أو متخذ القرار، وذلك باستخدام الأساليب المتقدمة للبحث.

4- المتغيرات المتعلقة بالنواحي الفنية:

حيث أصبح من الممكن قيام المفهرسين والقائمين بالعمليات الفنية بالاطلاع على قواعد البيانات الخاصة بالمكتبات والناشرين مثل OCLC وRLIN مما يؤدي إلى دقة عملية الفهرسة والتوثيق الخاصة بالمكتبة، وكذلك توفير الوقت والجهد للعاملين، وهذا يؤدي بالضرورة إلى دقة البيانات المتاحة وتوحيدها مع باقي الفهارس وقواعد البيانات العالمية.

5- توفير الوثائق وتوصيلها:

وهو أحد التطورات الهائلة في خدمات المكتبات ومجال التبادل والإعارة؛ فقد أصبح من السهل أن تقوم المكتبات بتبادل المجموعات الخاصة بها والمطبوعات الإلكترونية وإيصالها إلى المستفيدين في جميع أنحاء العالم، وهو من أهم المؤسسات التي تقوم بذلك ويصلها خلال العام أكثر من مليون طلب للحصول على الوثائق، وتقوم هذه المؤسسة بتوفير الوثائق سواء في صورتها الرقمية أو بالبريد العادي. لقد اهتمت العديد من الدراسات العلمية في مجال المكتبات بإمكانية تطويرها؛ حيث أورد (لانكستر) نتائج البحوث والدراسات والتي يمكن الاستفادة منها في تطوير مستقبل المكتبات الوقفية العربية والإسلامية، وهي:

(1-5)- أكّد (بنيمان) ضرورة أن تكون المكتبات إيجابية في المستقبل، وأن تحرص على إيصال المعلومات التي لا يمكن اختزانها، ويؤكد أيضا ضرورة تقييم المكتبات على أساس ما تقدمه من خدمات وليس على أساس ما تقتنيه من مصادر معلومات، وعلى أختصاصي استرجاع المعلومات أن يركز الجهود والطاقات على المشاركة في أعمال البحث التي تضمن للمكتبات أن تصبح هي نظم الإمداد بالمعلومات، تلك النظم التي تحتاج إليها مكتبات المستقبل، وأن تتوافر للمهنة المهارات القيادية لجعل المهنة

مخطوطات وكتب عربية تعود لعدة قرون

نظما للإمداد لا غنى عنها، كما يرى (بنيمان) أن المكتبات الآن في خطر؛ نظرا إلى افتقادها القيادة، وهو بهذا يركز على العنصر البشري القيادي بشكل أساسي لتطوير مكتبات المستقبل.(لانكستر: 407).

(2-5)- تحدثت (مولهولت) عن بيئة المكتبات الأكاديمية، وأكّدت أن تَقَدُّم تكنولوجيا المعلومات الذي يهدد وجود المكتبات التقليدية يمكن أن يؤدي في المستقبل إلى تعزيز مكانة المكتبات كمؤسسات والمكتبات كمهنة بشكل لم يتحقق من قبل. وتتفق مولهولت مع بنيمان على الحاجة إلى إحداث تغيرات في المهنة، وأشارت إلى ما معناه تغيير صورة المكتبات وما يضطلع به المكتبيون؛ فنحن بحاجة إلى التخطيط لإحداث تغيرات في التركيز بحيث يتحول المكتبيون والمكتبات من سدنة الكتب إلى أدلة مرشدة في عالم المعرفة، وسوف تكون قدرة المكتبيين على التخيل وعلى الخروج عن نطاق المكتبة إلى آفاق المعلومات الرحبة (لانكستر: 407).

(3-5)- ويتفق كل من داولن (1993) الذي يمثل المكتبات العامة ويونج (1993) الذي يمثل المكتبات الأكاديمية، مع بنيمان ومولهولت لكونهما يؤكدان أيضا إحداث تغييرات في المهنة بغض النظر عن الوسائل والتعبيرات التي استخدمت من قبلهما؛ إذ يرى يونج أن المكتبات ستسعى إلى توفير المعلومات بأكثر الأشكال ملائمة للمستفيد سواء كان الشكل المطبوع أو الإلكتروني أو الضوئي أو أي شكل آخر يمكن أن يظهر في المستقبل. وعموما فإن معظم المشاركين في تأليف كتاب المكتبات والمستقبل لا يرون في أشكال أوعية المعلومات الجديدة بديلا عن الورقية وإنما مصاحبة لها. ويعتقد يونج أن الهدف النهائي للمهنة المكتبية هو إنشاء المكتبة التخيلية أو التصويرية التي تشتمل على المعلومات التي يمكن الوصول إليها والمتاحة في أي مكان، ووفقا لهذا التصور يصبح مقر المكتبة مجرد نقطة ارتكازية للاسترجاع، أما داولين فيرى أن المكتبة في صورتها الحالية كقلعة والمتوقع أن تكون في المستقبل خطا للأنابيب (لانكستر: 408-407).

(4-5)- ويؤكد (1993) رايت تقنيات المعلومات الحالية والتي ستظهر في المستقبل، ويعتقد بأن المكتبي سيكون له دور في تقييم التقنيات الملائمة وتزويد الآخرين بالمعلومات حول قدرات وطاقات هذه التقنيات. (لانكستر: 409-408).

هل تستحوذ المكتبة الالكترونية على الكتب الورقية المطبوعة؟

(5-5)- ويتفق معظم المؤلفين المشاركين في الكتاب المذكور على أن المكتبات كمؤسسات والمكتبات كمقار ومبانٍ سوف تظل قائمة، إلا أن الدور الذي تمارسه سوف يتغير (لانكستر: 409).

(5-6)- ويتوقع نيلا ميغان، وهو من الدول النامية، أن يكون لتكنولوجيا المعلومات دور إيجابي على مكتبات دول العالم الثالث؛ حيث ستوفر فرص الوصول إلى المعلومات عن طريق شبكات المعلومات بكل مستوياتها، والإفادة من مراصد البيانات على الوسائط الضوئية الإلكترونية مثل الأقراص الضوئية المكتنزة (لانكستر: 409).

(5-7)- تؤكد كريمر (1993)، وهي باحثة من البرازيل، أن المكتبات ومؤسسات المعلومات ينبغي أن تتطور في هذه الدولة إلى الحد الذي تستطيع به تأكيد أهميتها في تلبية الاحتياجات الاجتماعية والتقنية والثقافية للأمة (لانكستر: 409).

(5-8)- أما نظرة كلجور إلى مكتبة المستقبل فهي وضع تصور لنظام مكتبي إلكتروني يتكون من مرصد بيانات مركزي يتضمن النصوص الكاملة للكتب والمقالات وأوعية المعلومات الأخرى، بالإضافة إلى مراصد بيانات تكفل للمكتبات التعامل معها عن بعد، تضم مختلف كشافات هذه النصوص الكاملة (لانكستر: 409)

(5-9)- يشير كل من لورين سيلار وتوم سوربرنانت إلى ما يأتي إننا نكاد نرى نهاية مكتبة المعلومات وإن الطباعة على الورق في سبيلها إلى الانقراض ويقدمان وصفا لعالم من المكتبات جميع مصادر المعلومات والإبداع والترويج فيه إلكترونية، كما يريان أن مركز المعلومات التصوري الذي يقصده يونج (Young 93) ربما يكون الهدف النهائي لمهنة المكتبات، وأن مركز المعلومات التصوري يحل محل الرفوف، وبإمكان كل مستفيد أن يتجول إلكترونيا في جميع أرجاء مستودع العالم من المعرفة المسجلة من دون مغادرة منزله (لانكستر: 410).

(5-10)- وفي كتاب (Information UK 2000) الذي صدر في المملكة المتحدة، هناك مجموعة من التنبؤات التي وردت فيه؛ حيث يقدم الكتاب نتائج دراسة أجريت بمبادرة من المكتبة البريطانية للتنبؤ بالطرق المحتملة لإنتاج المعلومات واختزانها وتداولها في المستقبل، فقد تناول الكتاب التنبؤ بالاتجاهات المستقبلية الاجتماعية،

ويمكن تلخيص ما جاء من توقعات في هذه الدراسة في التالي (لانكستر: 413-410).

أ- أن تؤدي ضغوط الميزانية إلى التحول من شراء المواد إلى شراء حق الوصول إلى المعلومات.

ب- إنشاء تجمع ضخم يضم المكتبات الكبرى ليكون أساسا للمقتنيات التي يمكن أن تتاح للمكتبات الأخرى إمكانية الوصول إليها.

ج- تحوّل المكتبات المحلية إلى مراكز للتوجيه في المقام الأول.

د- أفول نجم المكتبات الأكاديمية بوجه عام؛ فوفقا لما ذهب إليه المحررون سوف تعمل الأقسام الأكاديمية على تدبير مقومات تعاملها مع المصادر الإلكترونية، أما المكتبة الأكاديمية فسوف تصبح مجرد قاعة للدرس.

هـ- أما فيما يتعلق بالتأهيل والتدريب فإن التنبؤات تشير إلى:

- تضاؤل فرص التوظيف في المؤسسات التقليدية (المكتبات).

ظهور وظائف جديدة تشمل البحث وتحليل المعلومات لدعم اتخاذ القرارات ووضع السياسات ومعالجة المعلومات وصياغة التقارير الفنية والإضطلاع بمسؤولية الإدارة ومعالجة أنشطة إنتاج المعلومات.

زيادة المستشارين والوسطاء.

- حدوث تحوّل عن التدريب الرسمي أو المؤسسي في المكتبات وعلم المعلومات، والاهتمام ببرامج تقنيات المعلومات والإدارة ثم بالجوانب الاجتماعية في المستقبل.

و- يرى محررو الكتاب أن مهنة المكتبات كما هي الآن عرضة للتهديدات؛ فالتوسع في استخدام تقنيات المعلومات وزيادة الاعتماد على الأساليب الآلية وتزايد تآلف المجتمع مع الحاسبات الإلكترونية وتزايد حدة الضغوط التجارية من أجل بيع مختلف أنواع منتجات المعلومات للجمهور؛ كل هذه العوامل تؤدي إلى إضعاف موقف المكتبيين التقليديين أو علماء المعلومات.

ز- إن مستقبل المكتبات سوف تحكمه -إلى حد بعيد- التطورات التي تحدث خارج نطاق السيطرة المباشرة لهذه المؤسسات، وأبرز العوامل المؤثرة في مستقبل المكتبات هو ما سيحدث في صناعة النشر وفي نظام الاتصال العلمي، وسيشهد المستقبل نشر المزيد من مصادر المعلومات الإلكترونية وتضاؤل أهمية الطباعة الورقية، والمهم في ذلك هو كيفية إتاحة المصادر الإلكترونية هذه في المستقبل، هل سيتم الوصول إليها عبر الشبكات الإلكترونية أو أنها ستوزع على شكل أقراص مكتنزة أو غير ذلك من الأشكال التي يمكن أن تظهر في المستقبل.

ح- سوف يتجدد شكل مكتبة المستقبل تبعا لشكل المؤسسة التي تتبعها ففي الولايات المتحدة تتجه الأمور نحو الجامعة الإلكترونية التي يتم فيها الجانب الأكبر من التواصل للأغراض التعليمية والعلمية والبحثية عن طريق الوسائط المتعددة.

ط- التنبؤ بحدوث انخفاض

مخصصات تمويل المكتبات.

(11-5)- وفي دراسة حول التحديات التي تواجه مهنة المكتبات في الهند في الألفية الجديدة، أشارت الدراسات إلى العوامل العديدة التي تؤثر على مهنة المكتبات منها العوامل التربوية والتعليمية وأن المكتبات في ظل هذه العوامل تحتاج إلى تغيير في مهامها، كما أن أمناء المكتبات سيقومون بمهام أشبه بالمهام الاستشارية والتخلي أو التقليل من العمل التقليدي، وأن المكتبات ستتحول من مركز للمقتنيات إلى مركز إتاحة وخدمات موجهة. كما أشارت الدراسة إلى أن المكتبات يمكن أن تواجه هذه التحديات عبر مشاركة المصادر والشبكات ومساهمات الجمعيات وتوفير البرمجيات وإعداد الكوادر ذوي المهارات المطلوبة (Jestin: 1-3).

(12-5)- وفي دراسة حول الحاجة إلى تدريب المكتبيين على الأمور المتعلقة بالبيانات في جامعة ويسترن كاب في جنوب إفريقيا، أكّدت الدراسة ثلاثة أهداف لها علاقة بمستقبل المكتبات، وهذه الأهداف هي: -

أ- تأثير التكنولوجيا على رواد المكتبات الأكاديمية.

ب - تأثير التكنولوجيا على المكتبات الأكاديمية.

ج - تغير مهام المكتبات الجامعية وفقا للمتطلبات التي سوف تلعبها في المستقبل.

وهذه التأثيرات ستجبر المكتبات إما أن تتآلف مع هذه الطبيعة الجديدة أو أن تموت وتتلاشى (Paris: 6-10).

(13-5)- يشير (كارول نيوتن) إلى أن التطورات المتلاحقة في شبكات المعلومات الإلكترونية ستجعل المستفيد يحصل على المعلومات من دون الحاجة إلى الدخول إلى المكتبة، وأن أمناء المكتبات سيعملون خارج جدران المكتبة، وأن مبنى المكتبة سيكون غير ضروري في المستقبل القريب، وأن دور المكتبي في العصر الإلكتروني سيتحول إلى عالم المستفيدين وإرضاء حاجاتهم واهتماماتهم من خلال تدريب المستفيد، واستخدام برامج الحاسبات وتأكيد الاستراتيجيات المستخدمة في البحث بغرض الوصول إلى مصادر المعلومات الإلكترونية (Newton Smith: 1-3).

(14-5)- ويتوقع (يونجمان(أن التكنولوجيا تمتلك تغيرات لا متناهية تؤثر على مهنة المكتبات وسلوك أمناء المكتبات، وكل المؤشرات تبين أن التغير سيستمر وأن أمناء المكتبات يتحركون باتجاه مهام جديدة مختلفة مثل الخدمات التي ظهرت والتي ستظهر في المستقبل، كما توقع (يونجمان) أن الموارد البشرية تعد شيئا جوهريا لنجاح كل خدمة مبنية على التكنولوجيا، وعلى المكتبة أن تواجه هذا التحدي لتطوير وتقديم الخدمات المبنية على تكنولوجيا المعلومات، فضلا عن تطوير الخدمات التقليدية الموجودة. كما أشار إلى أن الخدمة الإلكترونية تحتاج إلى مهارات خاصة تعتمد على مهارة التعامل مع تكنولوجيا المعلومات، كما تنبأ بعدم زيادة الملاك الوظيفي في المكتبات، وتوقع أن تضيف التكنولوجيا مهام جديدة إلى أمين المكتبة، وستكون هذه المهام إضافة إلى المهام القديمة وليست بديلا عنها (Youngman: 4-5).

وفي ضوء هذه النتائج المستقبلية يعد إدخال تقنية المعلومات في مكتبات الأوقاف أكثر أهمية من بعض أنواع المكتبات الأخرى؛ وذلك بسبب بعض الخصائص التي تميز مجموعات تلك المكتبات وخدماتها وأهدافها التي تسعى إلى تحقيقها وهي:

أولاً: مجموعات مكتبات الأوقاف:

تتميز مكتبات الأوقاف بتوافر عدد كبير من المخطوطات والكتب النادرة فيها، وهي من أوعية المعلومات ذات القيمة الكبيرة من الناحية المادية والعلمية؛ لذا فإن الحاجة إلى الحفاظ على تلك المواد وحمايتها من التلف أو السرقة تعد ضرورة ملحة، وقد شهدت مكتبات الأوقاف عبر التاريخ العديد من محاولات التخريب المقصودة التي أودت بعدد كبير من مجموعات تلك المكتبات، وتوجد نماذج لتلك المحاولات التي ظهرت في العصور القديمة، ويمكن تلخيصها في التالي:

1- نهب بعض العلماء والفقهاء لبعض المجموعات الموقوفة على المدارس أو في مكتبات وقفية وغيرها...وذلك رغبة منهم في الاستئثار بالعلم وحجبه عن العامة.

2- استغلال بعض القضاة لمناصبهم واغتصابهم لكتب الأوقاف.

3- حرق الغزاة والجهلة لدور الكتب وسطوهم عليها ونهبهم لها.

4- تفريط بعض أمناء المكتبات في مجموعاتها من خلال تسهيل نهبها وسرقتها بالإهمال في الإشراف عليها أو بإعارتها من دون ضمانات، وذلك على سبيل المجاملة أو لتحقيق منافع خاصة من قِبل بعض أصحاب النفوذ.

5- قيام الطلبة بسرقة الكتب وبيعها بسبب الظروف الاقتصادية السيئة التي مرت بها دولهم في بعض الفترات التاريخية.

إن ما تعرضت له مجموعات المكتبات الوقفية في مختلف أنحاء العالم العربي عبر العصور التاريخية المختلفة جعل القائمين عليها يهتمون بالاستفادة من الوسائل المتاحة للحفاظ على تلك المجموعات، وقد كان ظهور المصغرات الفيلمية أحد الوسائل التي ساعدت بعض المكتبات على تفادي جزء كبير من مشكلة فقدان مجموعات المكتبات، وذلك لما تتيحه تلك المصغرات من الحفاظ على مجموعات المخطوطات والكتب النادرة من التلف الناتج عن كثرة الاستخدام، حيث يمكن الحفاظ عليها من عمليات السرقة التي قد يقوم بها بعضهم، ومن ناحية أخرى يمكن حفظ نسخ مصغرة في خزائن خاصة تقاوم الحريق؛ وذلك لتفادي تلفها في عمليات التخريب أو الحرائق، وخصوصاً أن المصغرات لا تشغل حيزاً كبيراً في الحفظ. وعلى الرغم من مميزات المصغرات الفيلمية إلا أنها لا تخلو من بعض

الجوانب السلبية، مثل: -

أ- احتمالات تعرضها للتلف لسوء الاستخدام، ويرجع ذلك إلى أن استخدامها يحتاج إلى تشغيل أجهزة قارئة، يتطلب مهارات معينة لذلك.

ب- صعوبة استرجاع المستفيد للمعلومات من بعض أشكال المصغرات، ومن ذلك الميكروفيلم؛ حيث يتطلب الأمر البحث عن المعلومة في لفائف الفيلم، أو الميكروفيش الذي تزداد صعوبة استرجاع المعلومات منه كلما زاد حجم البطاقات المنسوخة عليه.

ج- تعرض البطاقات للسرقة في بعض الأحيان بسبب صغر حجمها.

د- صعوبة استرجاع البطاقة المصغرة في حالة الخطأ في صفها ووضعها في غير مكانها الصحيح.

وعلى الرغم من تلك الجوانب المشار إليها وغيرها إلا أنه لا يمكن التقليل من أهمية المصغرات الفيلمية بوصفها وسيطاً من الوسائط غير المكلفة لخزن المعلومات واسترجاعها، والتي تسهم في الحفاظ على مجموعات المكتبات من التلف أو الضياع، إلا أنه مع تطور وسائط اختزان المعلومات واسترجاعها أصبح بالإمكان الاستفادة من أشكال أخرى من وسائط المعلومات مثل الأشكال المليزرة (CD ROM. DVD) حيث تتيح تلك الأشكال للمكتبات اختزان كم هائل من المعلومات في حيز صغير وبكُلف قليلة وبشكل يتيح استرجاع المستفيدين للمعلومات بسهولة كبيرة، كما يمكن إتاحة الاستخدام لأكثر من شخص في الوقت ذاته في حال ربط تلك الوسائط بشبكات محلية أو عالمية.

وقد حرصت بعض المكتبات الوقفية الإسلامية في المملكة العربية السعودية على الاستفادة من المصغرات الفيلمية في اختزان بعض مجموعاتها، ومن ذلك مكتبة مكة المكرمة التي تضم بين مجموعاتها 1500 مخطوط في شكل مصغرات فيلمية، ويشير عبدالوهاب أبو سليمان إلى أن تصوير المخطوطات على ميكروفيلم قد تم عن طريق مركز التراث الإسلامي بجامعة أم القرى في مقابل احتفاظ المركز بنسخة مصورة على ميكروفيلم من تلك المخطوطات، أما مكتبة الملك عبدالعزيز بالمدينة المنورة فتضم حوالي 1000 مخطوط و250 كتاباً نادراً مصوراً على ميكروفيلم، ولا تشمل باقي مكتبات الأوقاف التابعة للوزارة.

ثانياً: خدمات المعلومات في مكتبات الأوقاف:

أدّى حرص الواقفين على حفظ مجموعات الكتب التي وقفوها، ورغبتهم في إفادة عدد من المستفيدين منها، وخوفهم من تلفها، إلى وضعهم لبعض الشروط التي تضبط استخدام تلك المجموعات، وقد أدت تلك الشروط إلى وضع بعض القيود على تقديم خدمات المعلومات في مكتبات الأوقاف، ومن ذلك:

1- منع إعارة الكتب إعارة خارجية، ومن أولئك الشيخ عارف حكمت الذي اشترط عدم خروج المصاحف أو الكتب من مكتبته سواء على سبيل الإعارة أو بغرض استنساخها،

واشترط أن يقتصر الانتفاع منها على استخدامها داخل المكتبة للاطلاع أو الاستكتاب منها.

2- شدد بعضهم على المطالعة الداخلية؛ حيث اشترط في وقفيته أن يقوم خازن الكتب بكتابة أسماء طالبي الكتب داخل المكتبة على أن يمسح الاسم بعد إعادة الكتاب.

3- منع بعض الواقفين خروج الكتب لاستنساخها؛ وذلك خوفاً من تفرُّقها أو ضياعها أو تلف تجزئتها وتفريق ملازمها، وهناك من اشترط الاستئذان من الناظر عن الاستنساخ بحيث لا يكتب من الكتاب والقرطاس في بطنه أو على كتابته، ولا يضع المحبرة عليه أو يمرر القلم فوق الكتاب.

4- اشترط بعضهم أن تقتصر إعارة الكتب خارجياً على فئة معينة وهم الأشخاص الموثوق فيهم والمعروفون بالأمانة من ذوي السمعة الجيدة، واشترط بعضهم الآخر ضرورة وضع ضمانات لذلك تتمثل في رهن مناسب، على أن تُرَد الكتب المعارة بعد فترة زمنية محددة كأن تكون شهرين على سبيل المثال أو أن تُرَد إلى المكتبة في زمن المواسم، كما اشترط بعضهم أيضا إلى جانب الضمان توفير كفيل، واكتفى بعض منهم بكتابة سند تسلّم للكتب المعارة وتركه في المكتبة إلى حين إرجاع الكتب.

ولو تتبعنا الوضع القائم في المكتبات الوقفية لوجدنا أنها لا تختلف كثيراً في القيود التي تضعها لتقديم خدماتها عما ذكرناه؛ فقد تبين من خلال الدراسة ما يلي:

أ- أن جميع المكتبات تسمح باستخدام مقتنياتها من أوعية المعلومات للباحثين من ذوي السمعة الطيبة أو المكانة العلمية الرفيعة كأعضاء هيئة التدريس والطلاب.

ب- أن جميع المكتبات لا تتيح إعارة موادها إعارة خارجية بالشكل المتعارف عليه للإعارة وإنما يسمح معظمها بنوع خاص من الإعارة وفقاً لشروط معينة وذلك بهدف استنساخ المستفيدين لأوعية المعلومات المتوافرة بها، وتتشابه الشروط الموضوعية لذلك بين المكتبات في بعض جوانبها وتختلف في جوانب أخري، فنجد أن مكتبة مكة المكرمة تسمح بالاستنساخ بداخلها في الحالات الملحة لذلك، وإذا تعذر ذلك بسبب كثرة الطلب على آلة النسخ أو غير ذلك، فإنها تسمح بإعارة أوعية المعلومات لاستنساخها خارج المكتبة وإعادتها مرة أخرى، وتضع المكتبات شروطاً على النحو التالي:

- أن يتم ذلك في حالات الضرورة.

- أن يَترك الباحث بطاقة إثبات الهوية الخاصة به لدى المكتبة إلى حين إرجاع المادة.

- أن تتم إعارة النسخ الورقية المصورة من المخطوطات في حال توافرها بالمكتبة، أما إذا لم تكن هناك أي نسخ ورقية فتتم إعارة النسخة المصورة على ميكروفيلم.

- أن يتم تصوير نسخة ورقية للمكتبة من قبل الباحث في حالة استعارته للنسخة المصغرة على ميكروفيلم.

ويختلف النظام المتبع في مكتبة الشيخ محمد المقبل؛ حيث تتيح المكتبة خدمة الاستنساخ للباحثين بداخلها فقط ولا تسمح بإعارة أوعية المعلومات إعارة خارجية مطلقاً، وكذلك فإن مكتبة الملك عبدالعزيز تتيح هذه الخدمة بداخلها أيضاً. وتوفر مكتبة الملك عبدالعزيز عددًا من أجهزة الاستنساخ المخصصة لتقديم تلك الخدمة للمستفيدين من الكتب والمخطوطات المتوافرة بها، ولا يقتصر تقديم تلك الخدمة على المستفيدين الذين يحضرون إلى المكتبة ولكن يتم أيضاً الاستنساخ الورقي للمواد وإرسالها إلى المستفيدين على عناوينهم في حال طلبهم لذلك. وهناك مكتبة واحدة من بين المكتبات الوقفية وهي مكتبة عبدالله بن العباس لا تسمح باستنساخ موادها خارج المكتبة، كما أنها لا توفر آلات نسخ داخل المكتبة، وبالتالي فإنها لا تتيح سوى خدمة الاطلاع الداخلي.

وقد أتاحت لنا تقنية المعلومات وسائل حفظ ونقل للمعلومات يمكن من خلالها إيصال المعلومات إلى المستفيدين حتى في حالة وجودهم خارج حدود المكتبة من دون الحاجة إلى إخراج الوثيقة، وذلك تحقيقا لمفهوم المكتبات بدون خرائط الذي أصبح متعارفا عليه في عالم المكتبات والمعلومات الحديث؛ حيث أصبحت مقتنيات المكتبات بما فيها من نصوص كاملة للوثائق إلى جانب الفهارس والكشافات والمستخلصات بما تتضمنه من بيانات ببلوجرافية، تختزن على وسائط إلكترونية وتتاح من خلال شبكات المعلومات لتحقيق ما يُسمى بالمكتبات الافتراضية أو المكتبات الرقمية وهي المكتبات التي يطلق عليها بعضهم أنها مكتبات القرن الحادي والعشرين التي تتيح فيها الحاسبات الآلية ونظم الاتصال الوصول إلى

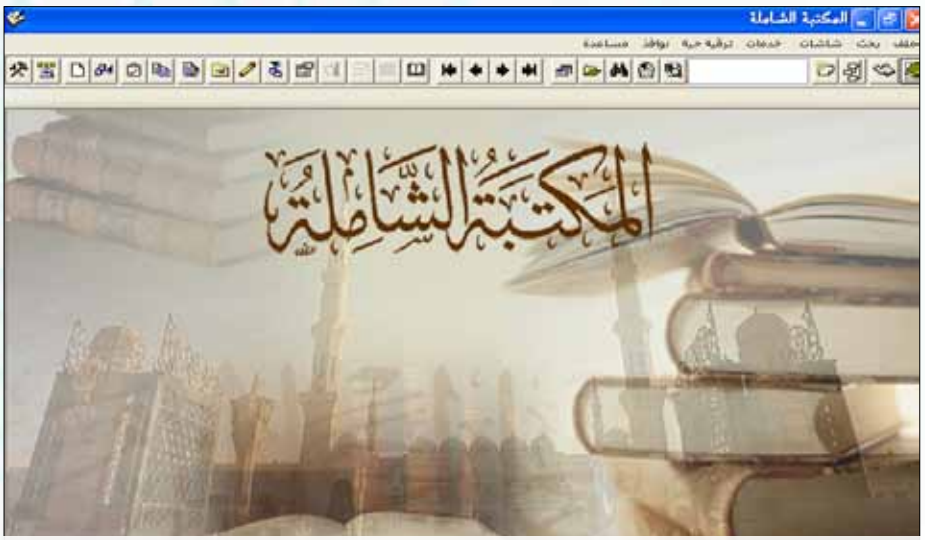

موقع لمكتبة الكترونية شاملة تحوي عشرات آلاف الكتب

معدلات كبيرة من أوعية المعلومات عن بعد.

متطلبات التطوير المستقبلي للمكتبات الوقفية الإسلامية:

توجد دوافع تجعل مكتبات الأوقاف تتجه نحو استخدام تقنية المعلومات في تقديم خدماتها للمستفيدين، ويمكن تلخيص أهم تلك الدوافع في التالي:

1- تطوير مستوى خدماتها بما يتماشى مع الاتجاهات السائدة في مكتبات العالم، وإتاحة أوعية المعلومات بشكل أسهل وأسرع.

2- إتاحة أوعية المعلومات عن بعد للمستفيدين بشكل تحافظ به المكتبة على تلك الأوعية من دون إعارة الأصول أو إتاحتها للتداول.

3- إتاحة المعلومات للمستفيدين في الوقت الملائم لهم من دون إلزامهم بالبقاء وقتاً طويلاً داخل المكتبات للاطلاع الداخلي على أوعية المعلومات.

4- إتاحة الاستخدام لفئات المستفيدين كافة من دون قيود تحد من إفادتهم منها، وتنظيم المعلومات بشكل يسهل معه استرجاعها.

5- تحقيق التعاون بين المكتبات باستخدام شبكات المعلومات ووسائل الاتصال الحديثة.

إن إدخال النظم الآلية إلى مكتبات الأوقاف يُعدُّ من الجوانب المهمة التي تحل بعض المشكلات التي تعترض إتاحة أوعية المعلومات فيها والتي مبعثها أساساً الحرص على تلك الأوعية القيِّمة الموجودة بها، وتنفيذ ما جاء من شروط وقفيات أصحابها، فباستخدام تلك التقنيات الحديثة يمكن حفظ الأصول بعيداً عن التداول وإتاحة المعلومات الواردة فيها للإفادة منها بشكل أفضل، علاوة على إمكانية تطوير مستوى الخدمات من حيث تقديم وسائط معلومات حديثة تتيح استرجاع المعلومات بسرعة أكبر ودقة أكثر وذلك من خلال الاشتراك في قواعد البيانات المحمَّلة على أقراص مدمجة، وقد تبين للباحث أن جميع المكتبات الوقفية لا تشترك في قواعد بيانات محملة على ذلك النوع من الوسائط. إن الدخول إلى عالم المكتبات الافتراضية يتطلب من المكتبات الوقفية اتخاذ إجراءات مستقبلية أبرزها ما يلي:

1- التنظيم الآلي للمعلومات:

لا بد أن تقوم المكتبات في بادئ الأمر بتنظيم

إحدى المكتبات العربية الإسلامية

مجموعاتها في شكل آلي وذلك من خلال إنشاء قاعدة بيانات ببلوجرافية لمحتويات كل مكتبة من المكتبات لتمثل الفهرس الآلي الخاص بها. وينبغي أن تحرص المكتبات على إنشاء فهارس آلية متوافقة مع صيغة مارك (الفهرس المقروء آليا) وذلك حتى تتمكن تلك المكتبات من تبادل البيانات الببلوجرافية مع المكتبات ومراكز المعلومات الأخرى. وبإلقاء نظرة إلى واقع مكتبات الأوقاف بالمملكة العربية السعودية نجد أن جميع المكتبات الوقفية لا تتبع نظماً آلية متكاملة لتنظيم العمل في مختلف أقسام تلك المكتبات بما في ذلك الفهرسة والتزويد والإعارة وضبط السلاسل واسترجاع المعلومات، بل إن معظم تلك المكتبات لم تدخل النظم الآلية للمكتبات إلى حيز العمل فيها مطلقاً، وقد أدخلت مكتبتان من المكتبات النظم الآلية إلى عمليات الفهرسة، وهما مكتبة مكة المكرمة التي أدخلت النظام عام 1415هـ، والمكتبة العلمية الصالحية التي أدخلته عام 1419هـ، وبدأت بتشغيله عام 1421هـ حيث تختزن كل من المكتبتين بيانات عن أوعية المعلومات المتوافرة بها باستخدام برامج خاصة تم إعدادها لكل منها من قبل أشخاص متطوعين ولا تتوافق مع صيغة مارك لإدخال البيانات واسترجاعها، وقد تم تحديد حقول البيانات التي يشتمل عليها الفهرس الآلي للمكتبة على النحو التالي: الرقم التسلسلي، اسم القاعة، تاريخ دخول الكتاب، الرقم الخاص، رقم التصنيف، العنوان، الموضوعات، لقب المؤلف، اسمه، اسم الشخص المعد للعمل، الطبعة، المكان، الناشر، تاريخ النشر، الأجزاء، عدد المجلدات، عدد الصفحات، نوع التجليد.

ويشير القائمون على المكتبة إلى أن الفهرس الآلي لا يتضمن حالياً تحديد أرقام التصنيف، حيث إن المكتبة لم تبدأ بتصنيف مجموعاتها وفقاً لنظام ديوي العشري إلا منذ فترة قريبة، أي الانتهاء من خزن البيانات وفقاً للنظام الآلي الموجود.

وتخصص مكتبة مكة المكرمة الفهرس الآلي للبيانات الببلوجية الخاصة بالكتب المتوافرة بها، أما بيانات المخطوطات فلم يتم إدخالها إلى النظام الآلي حتى الآن. والجدير بالذكر أن مكتبة الملك عبدالعزيز بالمدينة المنورة تعمل حالياً على المفاضلة بين نظامي الأفق ويونيكرون لاختيار البديل الأمثل منهما لتطبيقه في المكتبة.

2- اختزان النصوص الكاملة للمواد على وسائط إلكترونية:

ينبغي على المكتبات إتاحة النصوص الكاملة لمصادر المعلومات المتوافرة بها على وسائط إلكترونية يمكن إتاحتها للمستفيدين من داخل المكتبات أو عن بعد، وتجدر الإشارة إلى أن مكتبات العالم العربي التي تضم مخطوطات وكتباً قيمة قد أخذت تتجه نحو تحويل نصوص مجموعاتها إلى الشكل الإلكتروني، ومن ذلك مكتبة أمير المؤمنين في مدينة النجف بالعراق، التي تضم مجموعة من المخطوطات القيمة والتي من بينها الرسالة التي بعث بها الرسول إلى المقوقس عظيم القبط، ومصحف شريف بخط الإمام علي بن أبي طالب على جلد غزال بالخط الكوفي، إضافة إلى مخطوطات عدد من علماء المسلمين مثل أبي حنيفة النعمان وأحمد بن حنبل، وتسعى المكتبة إلى الحصول على موقع على شبكة الإنترنت لعرض تلك المخطوطات القيِّمة وغيرها من النوادر المتوافرة بالمكتبة. وعلى الرغم من أن مكتبة الملك عبدالعزيز بالمدينة المنورة تخطط لخزن النصوص الكاملة لمجموعاتها على أقراص مدمجة بعد أن يتم تشغيل النظام الآلي فيها إلا أنه حتى الآن لم يتم ذلك في أي مكتبة من المكتبات الوقفية.

ارتباط المكتبات بشبكات معلومات:

لا بد أن تهتم مكتبات الأوقاف باستخدام شبكات المعلومات لما لها من دور في تسهيل التعاون بين المكتبات الوقفية بعضها ببعض وبين المكتبات الأخرى، والذي يؤدي بدوره إلى الاقتصاد في المال والوقت والجهد المبذول في العمليات الفنية وإجراءات التزويد وما سوى ذلك من أعمال مكتبية، إلى جانب مساهمة تلك النظم في تطوير المكتبيين وإكسابهم الخبرات اللازمة، إضافة إلى تطوير مستوى خدمات المكتبات من خلال تسهيل الإعارة بين المكتبات.

وحتى وقتنا الحاضر فليس هناك ربط شبكي بين المكتبات الوقفية الإسلامية باستخدام وسائل الاتصال الحديثة يسمح بتبادل البيانات الببلوجية لتحقيق فهرسة تعاونية أو ما سواها، وذلك لأن معظم تلك المكتبات لم تستخدم حتى الآن نظماً آليه لضبط مجموعاتها.

والواقع أن العديد من المكتبات الوقفية لا تتصل بشبكة الإنترنت العالمية، رغم أهميتها لهذه المكتبات، حيث تحقق عدة إيجابيات من بينها:

1- تسهيل مراسلات المكتبة وتواصلها مع المستفيدين من خلال البريد الإلكتروني.

2- تطوير مستوى الخدمات من خلال استرجاع المعلومات عن طريق الشبكة العنكبوتية.

3- تطوير العاملين بالمكتبة من خلال تبادل الخبرات بسهولة مع المختصين.

4- تيسير عمليات التزويد من خلال الاتصال بالناشرين عن طريق الشبكة والتعرف إلى إصداراتهم وطلبها.

5- تيسير اتصال المكتبات بالإدارة العامة للمكتبات بوكالة الوزارة لشؤون الأوقاف بشكل أكثر سرعة وأقل كلفة.

إنشاء موقع للمكتبات على الشبكة العنكبوتية:

ولتطوير المكتبات الوقفية الإسلامية مستقبلاً لا بد من إنشاء مواقع لها على الشبكة العنكبوتية العالمية، وذلك لعدة أسباب من بينها:

1- تحقيق أهداف إعلامية؛ حيث إن إنشاء مكتبات الأوقاف لمواقع لها على شبكة الإنترنت سيحقق بلا شك أهدافاً إعلامية لتلك المكتبات، وستؤدي تلك المواقع دوراً كبيراً في إيصال رسالة عن الوقف ودوره في المجتمع من خلال إبراز دور المكتبات الوقفية في خدمة المستفيدين.

2- إتاحة المجال للمستفيدين للتعرف إلى المكتبة عن بعد، ومعرفة أهدافها ونشاطاتها ومقتنياتها من أوعية المعلومات، وبذلك تحقق المكتبات الوقفية مستوى أعلى من الخدمات المقدمة إلى المستفيدين؛ حيث تنقل المعلومات إليهم في أماكن وجودهم، سواء في مكاتبهم أو منازلهم، وبالتالي يستطيع المستفيد أن يبحث عن المعلومات في أي وقت يناسبه لعدم حاجته إلى الالتزام بمواعيد الدوام الرسمي لتلك المكتبات.

3- مسايرة التطورات التقنية الحديثة في مجال المعلومات والارتقاء بمستوى مكتبات الأوقاف وخدماتها بشكل يعكس صورة جيدة لتلك المكتبات، حيث أصبح

التوجه الحالي نحو المكتبات الرقمية أو الافتراضية التي تتاح فيها المعلومات للمستفيدين من دون التقيُّد بحدود المكان أو الزمان.

وقد تطورت الوسائط الحديثة لنقل المعلومات حتى أنه ظهر إلى الوجود مؤخراً ما يسمى الكتاب الإلكتروني، الذي يمثل نصوصاً أو نصوصاً وصوراً منشورة في شكل رقمي، وتستخدم الحاسبات الآلية في إنشائها وعرضها وقراءتها، ويتم تحميل تلك المعلومات من مواقع الشبكة العنكبوتية على أجهزة حاسب آلي صغيرة الحجم تستخدم كأجهزة قارئة للكتاب الورقي، ويتميز بصغر الحيز الذي يشغله، وقلة كلفة نشره مقارنة بالكتاب الورقي، بالإضافة إلى إتاحته خزن الصورة والصوت إلى جانب النصوص. ويمكن لمكتبات الأوقاف الاستفادة من هذه التقنية في مرحلة لاحقة لإتاحة المعلومات للمستفيدين بها.

5- الوسائل المطلوبة لتطوير المكتبات الوقفية إلكترونياً:

لتطوير المكتبات الوقفية إلكترونيا يستطيع الجميع أن يسهموا فيه، فقط يحتاج الداعم ومن يرغب في تقديم تلك الخدمات إلى التالي:

أ- كتب ومتون: والكتب التي من المفترض أن تكون موجودة هي الكتب الورقية الأصلية، والتي يشترط فيها كل الاشتراطات العادية لأي كتاب مطبوع، مثل العنوان، والمؤلف، والطبعة، ورقم الطبعة، وسنة النشر، وكلها من الاشتراطات الطبيعية لكي تضاف إلي المكتبة الإلكترونية الوقفية، مع ضرورة الأخذ في الاعتبار أن هناك مكتبات وقفية تنشر كثيرا من الكتب والمؤلفات، وخاصة في مجالات الإبداع الأدبي، من دون كل هذه الاشتراطات؛ وذلك من أجل تقديم مادة الكتب للعامة.

ب- جهاز كمبيوتر متكامل بماسح ضوئي (سكنر): عملية تحويل الكتاب الورقي إلى كتاب إلكتروني عملية يسيرة، ولا تحتاج إلى أدوات خارقة، بل هي بحاجة إلى أدوات يمتلكها أغلب العامة، ولكنها من الشروط الأساسية للوصول إلى ذلك، فلا غنى لتحويل أي مادة ورقية مطبوعة عن جهاز كمبيوتر بماسح ضوئي (سكنر) لتحويل الورقة إلى أخرى إلكترونية بالشكل ذاته، وبالألوان ذاتها، وبالهيئة ذاتها، ويمكن طباعتها كذلك لتبدو بالصورة ذاتها التي التقطت لها، وبذات القيمة والفائدة.

ج- إضافة الكتاب إلى موقع المكتبة الإلكترونية: عملية إضافة الكتاب أو المادة المطبوعة المحولة إلى مادة إلكترونية بالقيمة والأهمية ذاتها، هي أيسر عملية يقوم بها المُسهم في توسيع المكتبات الإلكترونية، ففي مواقع المكتبات الإلكترونية توجد النوافذ والأدوات والعناوين التي تدل الأفراد على فعل ذلك الخير الكبير، أو من خلال بريد إلكتروني خاص بهذا الموقع، ليقوم الداعم بتحميل الكتاب الإلكتروني من خلال بريده الإلكتروني، ومن ثم إرسال الكتاب -أو الكتب- ليتم عرضه في الموقع للعامة، ليتحقق بذلك النفع والإفادة، مع احتفاظ الداعم بالنسخة الأصلية من الكتاب الذي قدمه إلكترونياً.

5- بتحقيق الوسائل المطلوبة لتطوير المكتبات الوقفية إلكترونياً يمكن تحقيق ما يلي:

أ- حفظ التراث الإسلامي من مخطوطات وكتب في وسائل حديثة، ولها إمكانية الاستخدام لأكثر من شخص في الوقت ذاته.

ب- التعريف بالإنتاج الفكري الإسلامي، وسهولة وصوله إلى الباحث، من دون أن يكلف ذلك كثيرا من المتاعب التي تواجههم حالياً في الوصول إلى المعلومة التي يرغبون بها.

ج- الاستفادة من المعلومات الجديدة، والتي لم تكن مستخدمة من قبل مثل: الأشرطة السمعية، والأشرطة السمع بصرية، والرسائل الجامعية، والدوريات الإسلامية.

د- يوفر ذلك على المكتبات الوقفية القائمة على أرض الواقع من الاستفادة من مقتنيات المكتبات الوقفية على الفضاء الشبكي، مما يوفر كثيرا من المخصصات المالية للحصول على مقتنيات جديدة.

هـ- إزالة الحواجز الزمانية والمكانية التي تقف عائقاً أمام الوصول إلى الوعاء المعلوماتي الذي يرغب في اقتنائه المستفيد.

و- تسهم في عملية الضبط الببلوغرافي وتوجيه حركة التأليف، بحيث تسهم في معرفة آخر البحوث والدراسات وعدم تكرار الموضوع.

الخاتمة «نتائج - توصيات»

لقد كان الهدف الذي يسعى إلية مؤسس المكتبة هو تسهيل سبل الدرس والمطالعة والتأليف والترجمة لمن يرغب في ذلك؛ فقد كان يتعذر على الناس أن يقفوا على الكتب العلمية النادرة والتي ترجمت من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية، فذلل الخلفاء للناس سبل المطالعة والدرس في بيت الحكمة الذي أنشئ لنشر العلوم والمعارف المنقولة عن الأمم الأخرى، فتم إنشاء كثير من المكتبات في مختلف المدن الإسلامية، فقلما تجد مدينة إلا وفيها مكتبة يستفيد منها أهلها والزائرون لها، وكانت معظم المكتبات ملحقة بالمساجد فيتحقق لطلاب العلم الفائدة من وجود قاعات الدرس وأماكن البحث والاطلاع والتصنيف.

ولقد مرت المكتبات الوقفية الإسلامية بتحولات تاريخية تتلخص فيما يلي:

أولا: دور الحضانة (البداية) القرن الأول الهجري، ولقد انصب الاهتمام في هذه المرحلة على تدوين القرآن الكريم والحديث الشريف، لذا تعد نسخ القرآن الكريم والحديث الشريف النواة الأولى لمكتبات المساجد في الإسلام.

ثانيا: عصر النمو والتطور والازدهار (القرن الثاني حتى بداية السابع الهجري) وتبدأ هذه المرحلة بعد تأسيس الدولة العباسية بفترة وجيزة، وكان أوجها في فترة المأمون الذي شجع العلم والعلماء، وفي هذه المرحلة كانت المكتبات الإسلامية بشكل عام ومكتبات المساجد بشكل خاص مراكز إشعاع ثقافي.

ثالثا: النهاية (القرن السابع الهجري حتى بداية العصر الحديث) وقد تقهقرت المكتبات الإسلامية نتيجة عوامل داخلية تعرض لها العالم الإسلامي أو عوامل خارجية كالغزو المغولي الذي أحرق مكتبات بغداد والغزو الصليبي الذي دمَّر مكتبات الشام، أما الأسبان فقد أحرقوا مكتبات إسلامية كثيرة في الأندلس.

رابعا: وهي مرحلة إعادة البناء والنهوض لقاعدة التنمية الشاملة للوقف الإسلامي من منطلق أن هذه الصعوبات التي تعترض وقف الكتب أو الوقف عليها لا ترتقي إلى أن تحول دون الاستمرار في هذا النهج الحضاري المطلوب دائما في سبيل نشر الكتاب بين مريديه والمستفيدين منه، مما ينعكس إيجابا على العلم والفكر والثقافة، ويثري الحركة الثقافية بالتأليف والترجمة والنشر، ولا ينبغي النظر إليها إلا من منطلق أنها بحاجة إلى من ينظر إليها نظرة جادة تضعها في موقعها اللائق بها، فلا تُهمل إهمالا يضر بحركة الوقف ولا توضع على أنها عقبات كأداة تحد من الاستمرار في الدعوة إلى المزيد من جهود الواقفين؛ ذلك أنه مع الصعوبات التي تعترض وقف الكتاب والمكتبات يظل هذا الأسلوب الحضاري من أهم الموارد التي تُعين على بناء المكتبات في المجتمع المسلم.

نتائج الدراسة:

1- لقد تكفل الله عز وجل برعاية نبيه الكريم (صلى الله عليه وسلم) في الحياة الدنيا والآخرة، ومنَّ الله عز وجل عليه بأن وجده فقيرا فأغناه وجعل رزقه تحت ظل سيفه وأحل له الغنائم وحرمها على من سبقه من الأنبياء، فعندما انتقل الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) ترك أموالا كثيرة من ضياع وعقارات ومستغلات زراعية وأسلحة حربية ورقيق ونحو ذلك. فإن الأمر بالنظر إليه وإلى الخلفاء الراشدين من بعده وكل ما ترك النبي صلى الله عليه وسلم بعد موت أهله صدقة مصرفها مصرف النقل مردها إلى بيت مال المسلمين وكل ذلك معروف من سيرته وأخباره صلى الله عليه وسلم.

2 - أن المكتبة التي تهدف إلى أن تخدم قطاعا واسعا، ويقصد منها أن تكون معدة لاستقبال الباحثين والطلاب والدارسين، عرفت عند العرب والمسلمين من بداية الأمر اعتمادا على الوقف، وبالتالي فإن كل ما يشار إليه عند دراسة تاريخ المكتبات الإسلامية من غير المكتبات الوقفية لا يمكن أن يشمله مفهوم المكتبة المعاصرة، فهي إما أن تكون مكتبات خاصة بأفراد من العلماء والأثرياء أو مكتبات لأمراء وحكام لا يمكن دخولها أو ارتيادها إلا لقلة من الباحثين وبموجب شروط وقيود.

3- أن المكتبة الوقفية تشكِّل بنية المكتبة العربية منذ القرن الرابع الهجري، وأنها هي الإطار الفعلي لقيام وانتشار المكتبات في التاريخ العربي.

4- أن وقف الكتب عند العرب والمسلمين كان العامل الأساسي والمهم في نشر الثقافة وتوسيع دائرة المعرفة لدى الطلاب والدارسين على مدى قرون طويلة، من خلال المكتبات العامة والمدرسية ومكتبات الجوامع والخانقاهات والمارستانات.

5- تظهر الدراسة عمق الإحساس لدى قادة الفكر والثقافة في القرون السابقة بأهمية توفير الكتاب، وتوفير السبل التي تساعد على الاستفادة منه على نطاق واسع، الأمر الذي أدّى إلى أن يكون في مدينة مثل مرو في القرن السابع الهجري عشر مكتبات في وقت واحد جميعها عامة، نتيجة اعتمادها على الوقف.

6- أنه على الرغم من الثمار التي اكتسبها المجتمع العربي من ازدهار المكتبات الوقفية وتعددها إلا أن هناك من رفض خيرها فساعد على تدميرها بالحرق والسلب والنهب والسرقة، حتى إنه من النادر أن تكون مكتبة وقفية قد سلِمت من عنصر تدميري واحد من العناصر السابقة. وتجتمع العناصر التدميرية كلها في بعض الأحيان في هدم مكتبة بعينها.

7- نظرا إلى عالمية الشبكة وتوافر الوسائل في وجود كثيرٍ من التراث الفكري الإسلامي على الشبكة الدولية، فإنه من الممكن الوصول إلى مكتبات رقمية يتم تمويلها بواسطة وزارات الأوقاف في الدول الإسلامية والجمعيات الخيرية وأهل البذل والعطاء من أبناء المسلمين، من خلال إنشاء مكتبات وقفية على شبكة الإنترنت بحسب الإمكانات المتاحة وقدرات أبناء المسلمين، فلو تم إعداد فرق عمل مختلفة من مجموعة من العاملين مهمتهم إيجاد مكتبة وقفية للمخطوطات الإسلامية فسوف تقوم بنقل المخطوطات الإسلامية ووضعها على الإنترنت، وإذا جاء اليوم الذي تصبح أغلب الكتب الإسلامية المخطوطة والمطبوعة موجودة على الإنترنت فإنة يمكن لجميع الباحثين أن يقوموا بجميع بحوثهم العلمية ودراساتهم الشرعية من دون أن يغادروا بيوتهم أو أن يتجشموا عناء السفر بحثا عن المخطوطات المنتشرة حول العالم. ومجموعة أخرى تكون مهمتها إعداد مكتبة مختصة بالرسائل الجامعية وأخرى بالدوريات الإسلامية..... إلخ.

التوصيات:

1- يجب على كل الباحثين إزالة اللبس العالق في أذهان كثيرين من أن الأوقاف محصورة بالمساجد فقط، وإيضاح الأنواع التي يجري فيها الوقف من إنشاء دور للعجزة وبناء المستشفيات الخيرية والمكتبات الوقفية وشق الطرقات والأوقاف على المسافرين والمنقطعين ونحو ذلك من السبل الخيرية التي لا تُحصر.

2- ضرورة توفير الكفاءات العلمية والفنية المتخصصة في علم المكتبات للعمل في المكتبات الوقفية، مع ضرورة تطوير أساليب العمل في المكتبات الوقفية وتنظيم السجلات وتحديثها بإدخال نظام الحاسب الآلي فيها وربطها بشبكة آلية فيما بينها من جهة وربطها بالمكتبات العامة من جهة أخرى.

3- فتح مجالات التعاون بين المكتبات الوقفية والمكتبات العامة ومراكز البحث العلمي، وتبادل مصورات مع المكتبات العامة، مع ضرورة إنشاء قسم لترميم المخطوطات في المكتبات الوقفية يتولى ترميم مخطوطات المكتبات التابعة للجهات المعنية، وتطوير قسم التجليد فيها ليتولى بدورة تجليد الكتب التي تحتاج إلى ذلك.

4- العمل على تشجيع الناس على أهمية الوقف على المكتبات الوقفية وشراء الكتب النافعة لها، مع ضرورة إقامة المنتديات والملتقيات ودعوة رجال الأعمال للإسهام في دعم المكتبات الوقفية، ودعوة الإعلاميين والمؤسسات الصحفية لهذه الملتقيات، مع الحث على نشر الوعي، من خلال الأجهزة الإعلامية المسموعة والمقروءة والمرئية، بأهمية الإسهام في نشر العلم من خلال دعم المكتبات ماديا ومعنويا.

5- ضرورة العودة إلى الوقف ليكون طريقا نحو بناء حركة مكتبية وقفية زاهرة في العالم العربي كما كان عليه الأمر في الماضي، وهو ما يتطلب بث الوعي بين الأثرياء والعلماء باتخاذ هذا الأسلوب ليكون مصدرا من مصادر العمل الخيري لبناء المجتمع.

6- الاستفادة من تجربة الأسلاف التي تركزت على المواكبة بين حلقات الدرس المفتوحة وتشييد المكتبات الوقفية لتوقد ثقافة الطالب بما يُمكِّنه من التوسع والاستزادة، وبالتالي تكوين شخصية علمية متميزة للدارسين.

7- تأكيد الدور الحضاري الرائد للمكتبة الوقفية التي يمكن أن نعتبرها القاعدة التي أدت إلى قيام تلك الحضارة العربية في المجال العملي والإنساني.

8- تعميق الوعي بين الدارسين المعاصرين بقضية المكتبة الوقفية من خلال التركيز على تدريس جانب منها في كتب التاريخ المدرسية ليعلم الطالب منذ البداية أهمية المكتبة وأسبقية العرب في العناية بها منذ فترة مبكرة.

أولاً: المراجع العربية:

1 ـ جنيد، يحيى محمود (1416هـ)، الوقف وبنية المكتبة العربية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض.

2 ـ النملة، علي بن إبراهيم (1420هـ)، أوقاف الكتب والمكتبات، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، المدينة المنورة.

3 ـ محمد، حمادي بن علي (1417هـ) المكتبات الوقفية في المملكة العربية السعودية، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مجموعة (2).

4 ـ لانكستر، فردرك (1418هـ) أساسيات استرجاع المعلومات، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.

5 ـ أي دوالين، كينث (1420هـ) المكتبة الإلكترونية، ترجمة حسني الشيمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.

6 ـ الدكن، حيدر آباد (1359هـ) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دائرة المعارف العثمانية، القاهرة.

7 ـ ابن كثير (1977م) البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت.

8 ـ ياقوت، عبدالله (1324هـ) كتاب معجم البلدان، تحقيق محمد أمين، مطبعة السعادة، القاهرة.

9 ـ ابن طولون، الصالحي (1401هـ) القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تحقيق محمد دهمان، مجمع اللغة العربية، دمشق.

10 ـ المقريزي، تقي الدين (1978م) كتاب المواعظ والاعتبار في الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، دار صادر بيروت.

11 ـ إبراهيم، عبداللطيف (1966م) من الوثائق العربية في العصور الوسطى، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة.

12 ـ الجبوري، عبدالله (1969م) مكتبة الأوقاف العامة، مجلة الرسالة الإسلامية، بيروت.

13 ـ ابن فرحون (193هـ) كتاب نصيحة المشاور وتسلية المجاور، دار الكتب المصرية.

14 ـ التونسي، حمادي (1401هـ) المكتبات العامة في المدينة المنورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبدالعزيز.

15 ـ حمادة، محمد ماهر (1407هـ) المكتبات في الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت.

16 ـ الأمين، محمد محمد (1980م) الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، دار النهضة العربية، القاهرة.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

1_Adoracio Perez& Marta Enrech. A Virtual Library Services for virtual library community p.100 in: librar_ies without walls3 / edited by Bropy& Shelagh fisher& Zoo Clarke_london: LA,2000.

2_ American Council of Learned Cocieties. The History E_Book project: A Glossary of E_publishing.

3_ Frank K Leung Ebook.httr: /www.eie.polyu.edu.hk/frank/ebook.htm(7/2/2002).

الطب وتعريبه في مواجهة تغريبه

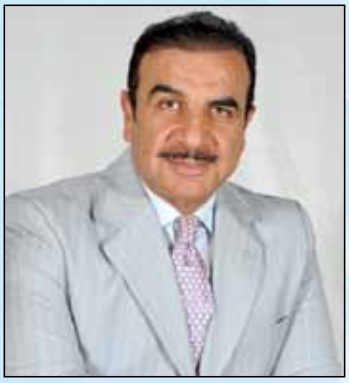

ا.د. فيصل عبداللطيف الناصر

تقول العرب إن اللغة هي وعاء الفكر، لذا فإن صلحت اللغة صلح الفكر. إن التحدث والتعلم باللغة الأم يعتبر من الأمور الحيوية والمهمة جدا، ومما هو مؤكد التأثير المباشر لها على إدراك المتلقي ودرجة استيعابه للمادة، ولإبراز أهمية اللغة وتأثيرها على الشعوب فلقد قام الرئيس الفرنسي السابق ميتران بمخاطبة أمته محذرهم من طغيان اللغة الإنجليزية على الفرنسيين قائلا «إن العالم لن يستمع إلى أمة تتحدث بلغة غيرها».

فنحن عندما نتحدث عن تعريب التعليم الطبي في الوطن العربي فإننا ندعو إلى أن يكون ذلك جزءا لا يتجزأ من تعريب التعليم ككل ابتداءً من مراحل التعليم الأولى إلى التعليم الجامعي، إلا أنه من المؤسف أن نرى أنه بالرغم من مرور قرابة قرن على الاستقلال من عبودية الاستعمار في معظم الدول العربية إلا أنه مازالت العديد منها تستخدم اللغات الأجنبية في تعليم الطب سواء كان ذلك باختيارها أو كانت مضطرة إلى ذلك أو أنها تتهيب من البدء بخوض غمار هذه التجربة، فنجد أن الطب يدرس باللغة الفرنسية في المغرب العربي وبالإنجليزية في المشرق العربي، وهذا مغاير لواقع معظم دول العالم؛ فنجد أن هناك ثقافات أخرى في دول متعددة تتمسك كل منها بلغتها الأم في تدريس هذا المجال الحيوي. حتى إن هناك دولاً صغيرة بدأت ولا تزال تستخدم لغتها الوطنية في التعليم العالي، إضافة إلى دول أكبر فعلت ذلك مثل الصين وكوريا وغيرهما، حيث يقول الدكتور خيري السمرة أستاذ جراحة المخ والأعصاب بكلية طب قصر العيني إن معظم دول العالم تدرس الطب بلغتها؛ فالإنجليزي يدرسه بالإنجليزية والفرنسي بالفرنسية والألماني بالألمانية والإسباني بالإسبانية والصيني بالصينية والياباني باليابانية، حتى إن اللغات المنسية وشبه المنقرضة تُستخدم في تعليم طلابها في بعض الدول مثل العبرية بإسرائيل.

لقد أصاب أحد المفكرين العرب حين ذكر: أن هناك ضرورة قومية وحضارية وعلمية لاستعمال اللغة العربية كلغة للتدريس والحوار والتثقيف والتوعية في مجال الطب وسائر العلوم الإنسانية. ولكن ليس معنى ذلك التقوقع وعدم الإلمام بلغات أجنبية أخرى والتي يتحتم تدريسها للطالب خلال مراحل سنوات التعليم الطبي حتى يتخرج الطالب وهو متمكن تماما من اللغة الأجنبية التي تُمكِّنه من متابعة تطورات المجال الطبي والعلمي، إضافة إلى المشاركة الفعّالة في الاجتماعات والمؤتمرات العالمية، فإن كنا نتفق مع المقولة المشهورة لدى العرب وهي طلب العلم ولو في الصين، فلا بد لكي نتمكن من طلب العلم في الصين أن نجيد الصينية.

في الثمانينيات من هذا القرن أجرت منظمة الصحة العالمية دراسة على مجموعة من كليات الطب في 128 دولة من دول العالم بلغ عددها 1259 كلية، فوجدت أن البلدان التي تقوم بالتدريس بلغة مختلفة عددها قليل جدا، إلا أنه لوحظ أنه في بورتريكو -مثلا- التي تخضع للإدارة الأمريكية يعلم الطب باللغة الإسبانية، وفي كندا الخاضعة للتاج البريطاني يدرس الطب بالفرنسية في المدن الناطقة بالفرنسية وبالإنجليزية في المناطق التي يقطنها المتحدثون بالإنجليزية. كما وجدت الدراسة في الصين التي كان بها آنذاك 114 كلية طب أنها كلها كانت تعلم باللغة الصينية. أما الاستنتاج النهائي للدراسة فكان أن تعليم الطب باللغات المحلية حتى في الدول الصغيرة التي بها عدد سكان محدود ليس عقبة تَحُول دون تعلم الطب.

إن الطبيب في العالم العربي يمر في خط أعوج من التلقي العلمي، فهو خلال المدرسة يتعلم باللغة العربية وعندما ينتقل إلى كلية الطب يدرس بلغة أجنبية ثم يعود ليمارس الطب ويحاكي المرضى لمعالجتهم وتثقيفهم صحيا محاولا استخدام اللغة الأم العربية، وهذا شيء غريب.

يقول الدكتور حسين الجزائري الرئيس السابق لمنظمة الصحة العالمية لإقليم شرق البحر الأبيض المتوسط إن غالبية الطلاب لدينا يحاولون أن يحفظوا مع قليل من الفهم ونحن إذ ننادي بأن ندرس باللغة العربية حتى يكون الفهم هو القاعدة ويكون الحفظ فقط عند الضرورة.

ولا شك في أن تدريس الطب في الدول العربية بلغات أخرى ينطوي على صعوبات كثيرة؛ حيث يقول الدكتور جوربيت في دراسة له لا ينبغي التقليل من الحمولة المعرفية المضافة إلى لغة ثانية أثناء تعلم الطب. وأنا أقدِّر الجهد الذي يبذله بعضهم في فك رموز المعجم الطبي من لغة أجنبية خلال العملية الفهمية للمعلومة.

إن التعلم ومحاولة التخاطب بلغة مختلفة عن اللغة الأم هو مفهوم أعوج يعمل على الخلل في تربية الأجيال وعرقلة تنمية الولاء والمواطنة فيهم، وهذا ما ذهب إليه ابن خلدون في مقدمته عند توضيح أن المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب، فيقول في ذلك إن النفس أبدا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه إما لنظرة بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي، إنما هو لكمال الغالب.

لم يذكر في تاريخ الوطن العربي، عندما كانت العرب في قمة ازدهارها، أن الطب كان يدرس بلغة غير اللغة العربية. ولا بُدَّ أن نقتبس العِبر من الماضي لبناء المستقبل الزاهر؛ ففي أول كلية طب بمصر (كلية طب قصر العيني حاليًا) كان التدريس باللغة الأم منذ إنشائها عام 1827م أيام محمد علي الكبير. وعندما اضطرت إلى استقطاب أساتذة أجانب للعمل بها، كانت تُقام الترجمة الفورية لمحاضراتهم في قاعات المحاضرات، وتم إيفاد الخريجين إلى فرنسا للحصول على التخصص، علما أن اللغة الفرنسية كانت معتمدة كلغة إضافية في مناهج الدراسة الطبية؛ حيث كان يُطلب من كل مبتعث ترجمة كتاب طبي إلى اللغة العربية. وقد استمر هذا النهج من التدريس باللغة العربية وابتعاث الخريجين لأكثر من ستين عاما تمكن الأطباء العرب خلالها من تأليف أكثر من 53 مرجع طبي وترجمة العديد من المراجع إلى العربية، واستمر ذلك

إلى أن بدأ الاستعمار البريطاني لمصر في عام 1882م، عندئذ تحوَّل تعليم الطب من اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية؛ حيث تم ذلك في غضون خمس سنوات فقط.

وفي لبنان أُنشأت في عام 1866م الكلية السورية الإنجيلية التي سميت في مرحلة لاحقة بالجامعة الأمريكية ببيروت، وبعدها أُنشأت عام 1883م مدرسة الطب اليسوعية؛ حيث كان التدريس بهما باللغة العربية إلى أن غزا الاستعمار لبنان، فتحوَّل التعليم إلى الإنجليزية والفرنسية.

أما في سوريا التي أُنشأت بها جامعة دمشق في عام 1903م فكانت ومازالت دراسة الطب بها تتم باللغة العربية. ولقد حاول الاستعمار الفرنسي الذي استمر أكثر من ربع قرن من دون جدوى إغلاق المعهد الطبي الذي أُعيد افتتاحه في عام 1919 وتغيير لغة التدريس، إلا أن الأساتذة كانوا يصرون على أن يُعلِّموا بلغتهم الأم. وفي هذه الفترة ازدهرت مصادر العلوم الطبية وتم تأليف معجم المصطلحات الطبية، كما نشر في عام 1983 مجلد المصطلحات المترجمة الذي يتكون من 1102 صفحة.

وقد يظن بعضهم حاليا أن تعليم الطب باللغة العربية في سوريا أدى إلى تدني مستواه أو أن الأطباء السوريين أقل كفاءة من زملائهم العرب الآخرين، مما يتناقض مع الواقع الذي يشير إلى عكس ذلك؛ ففي دراسة أُجريت في جامعة الملك فيصل بالسعودية عن نتائج الأطباء السوريين في امتحان (ECFMG) وهو امتحان المجلس التعليمي الأمريكي للأطباء الأجانب الذي يعقد عدة مرات كل عام بالولايات المتحدة الأمريكية باللغة الإنجليزية، حيث يتقدم إليه في كل مرة نحو عشرة آلاف طبيب من مختلف أنحاء العالم، ومن يجتازه يحق له العمل أو الدراسة الطبية العليا في الولايات المتحدة الأمريكية، وجد الأستاذ الدكتور زهير السباعي (الباحث الرئيسي) أن مستوى الأطباء السوريين في هذه الامتحانات لا يقل عن مستوى زملائهم الأطباء من مختلف أنحاء العالم، مما يدل على أن تعلم الطب باللغة العربية لم يكن عائقا أمام الأطباء السوريين أو يَحُول دون أدائهم الامتحان واجتيازهم له بنجاح.

وفي دراسة أخرى للدكتورة سحر محمد صبور في مصر وجدت أن 50% من طلاب الطب يترجمون المصطلحات الإنكليزية إلى اللغة العربية لتسهيل دراستهم، وأن 71% من الطلاب في سنوات دراستهم السريرية يفضلون أن يتعلموا كيفية أخذ القصة السريرية للمريض باللغة العربية. وعلى الرغم من انحسار التعريب انحسارًا شديدًا بوجه عام فإنه يُنظر إلى التعليم باللغة العربية على أنه ملائم في بعض التخصصات.

كما أُجريت في معاهد عديدة في الوطن العربي دراسات تربوية على طلاب في مراحل تعليمية مختلفة تَبين منها أن التعليم باللغة الأم يُيَسِّر على المعلم أن يُعَلِّم ويُسَهِّل على الطالب أن يُحَصِّل.

وفي دراسة بالمملكة العربية السعودية على متوسط سرعة القراءة باللغتين العربية والإنجليزية لثلاث فئات: طلبة الطب وأطباء الامتياز والأطباء المقيمين بجامعة الملك فيصل بالدمام وُجد أن سرعة القراءة أفضل بالنص العربي بين الجميع، وأن متوسط القدرة على استيعاب النصوص الطبية باللغة العربية أفضل من الإنجليزية.

يقول الدكتور علي فخرو المفكر والوزير السابق البحريني إن علماء آخرين يؤكدون أن اللغة القومية الواحدة تيسر عمليات التعلم والتعليم وتفتح باب ديمقراطية التعليم على مصراعيه لاستنباط الكتلة الحرجة من الموارد البشرية التي لا بد منها كي تعطي مشاريع الإنماء ثمارها.

فبالرغم من هذه الحقيقة المرة في وطننا فإنّ السؤال الذي يطرح نفسه.. هل نحن في الدول العربية الذين اخترنا أن ندرس الطب بلغات تختلف عن لغة تخاطبنا اللغة الأم وهل تميزنا بين دول العالم في مجال الطب أو في عدد ونوعية البحوث العلمية؟ إلا أن الجواب المؤلم والصادم هو أننا مازلنا متخلفين حتى عن أدنى الدول في هذا المجال، ولم نتمكن في العصر الحديث من تقديم أي نتاج أو اختراع علمي مميز للبشرية ينسب إلينا على عكس كثير من الدول التي تدرس بلغتها مثل اليابان وإيران التي امتازت في نوعية وعدد البحوث العلمية المنشورة لديها.

كل ذلك يتم برغم ما للغتنا العربية من خاصية ومن حيوية وقابلية للتكيف مع التطور تميزها عن باقي اللغات الأخرى، حيث يقول إدوار سابير أحد مؤسسي علم اللغة الحديث إن العربية هي إحدى اللغات الخمس التي تشمل الصينية القديمة، والسنسكريتية، واليونانية، واللاتينية التي كان لها دور رئيسي في حمل الحضارة

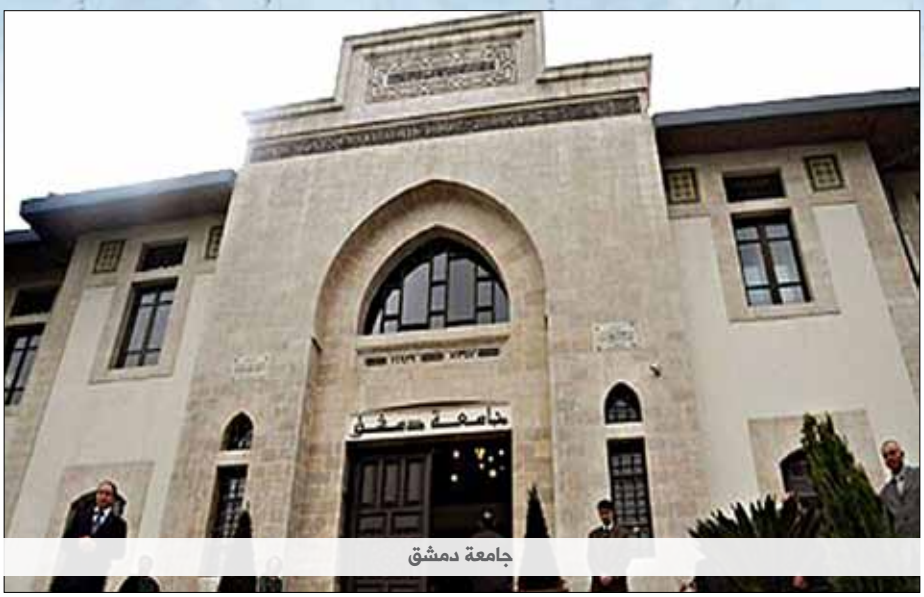
جامعة دمشق

الإنسانية. وبالفعل، فاللغة العربية قادرة على الاستمرار في تأدية هذا الدور ولا أَدَلَّ على ذلك من أنها –من بين اللغات المشار إليها– هي اللغة الوحيدة التي ما زالت إلى يومنا هذا تؤدي دورها في الحضارة الإنسانية، فهل تعجز اللغة العربية عن إنجاز ما أنجزته لغات أخرى لا تملك مزايا العربية أو مرونتها أو اتساع تطبيقاتها؟ وهل نسينا ما قدمه علماؤنا العرب القدامى بلغتهم العربية الجميلة للطب الحديث من كثير من النظريات والمراجع العلمية القيِّمة، وأن ازدهار النهضة الغربية الحديثة التي تلت النهضة العربية بُني على هذه الاكتشافات؟

إن واقع تدريس الطب في البلاد العربية بلغات أجنبية لا يدل إلا على الهزيمة النفسية التي نعاني منها وخاصة إذا ما علمنا أن الطالب عند تخرجه لا يملك في الغالب أن يكتب صفحة واحدة باللغة الإنجليزية من دون أن يرتكب عديدا من الأخطاء.

وإدراكا لأهمية هذا الموضوع فإنّ دساتير جميع الجامعات العربية تنص صراحة على أن لغة التعليم هي اللغة العربية وبالتالي فإنَّ عملية التعريب أصبحت في يد أساتذة ورؤساء الجامعات العربية، كما صدرت قرارات عديدة عن مؤتمرات وزراء التعليم لعامي 1981 و1983 ومؤتمر وزراء الصحة العرب في عام 1986 ووزراء شؤون الثقافة العرب 1985 ومؤتمرات وزراء التربية والتعليم ومؤتمرات اتحاد الجامعات العربية ومؤتمر مجمع اللغة العربية واتحاد الأطباء العرب ومؤتمرات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ابتداء من المؤتمر الأول الذي عقد بالرباط سنة 1961. ومن بين عشرات القرارات والتوصيات الصادرة في هذا الصدد قرار المؤتمر الطبي العربي الرابع والعشرين الذي عُقد في القاهرة في يناير 1988م. وختامها كان مؤتمر التعريب في البحرين عام 1993 الذي كان لي شرف تنظيمه والإعداد له؛ حيث تم تنظيم المؤتمر الأول للرعاية الصحية الأولية في الوطن العربي بالبحرين وكان أحد شروطه الرئيسية هو عربية لغة المؤتمر وعدم قبول أي أوراق علمية بأي لغة أخرى غير اللغة العربية، فشارك فيه أكثر من ستمائة طبيب وباحث ومهتم من جميع أرجاء الوطن العربي جمعتهم كلهم لغة الحوار اللغة الأم اللغة العربية، حيث لاقى نجاحًا غير مسبوق.

ختاما، يجب علينا أن ندرك أن الطريق لن يكون سهلا في اتخاذنا خيار التغيير، وأننا سنواجه صعابا كثيرة ومشاكل عدة في هذا المضمار، إلا أننا لا بد أن نكون على يقين بأنه لا احترام لمن لا يصون أصله ولا يحترم تاريخه، فإن رغبنا في أن يكون لنا مكان بين الحضارات والأمم، ومجاراتهم في مضمار النهضة والتقدم من دون التبعية والإحباط، فلا بد من عقد العزم على التغيير وألا نيأس، فطريق الألف ميل دائما يبدأ بخطوة، ولنقول حي على الفلاح وحي على التعريب.

Health Care
Doctor
Hospital
MEDICAL

هشاشة العظام..

العلة الصامتة

مرض هشاشة العظام تم اكتشافه في الثلاثينيات من القرن المنصرم على يد الطبيب (فولر أولبرايت) من مستشفى ماساشوستش في بوسطن، وقد أدى ذلك إلى إضافة كثيرٍ من المعلومات المعروفة، وأنه ليس –كما كانَ يُعْتَقد سابقا– نتيجة طبيعية لتقدُّم العمر في مرحلة الهِرم والشيخوخة، وأن هذه التغيرات التي كانت تعزى إلى الشيخوخة ما هي إلا مرض بكل ما للمرض من مقومات، له أعراض خاصة به، ومضاعفات قد تكون مميتة في بعض الحالات، وعلى ذلك يعد البحث عن سبل الوقاية منه ضرورة حتمية، وخاصة أن الأسباب باتت معروفة ومتوافرة.

د. أميرة محمد بنداري

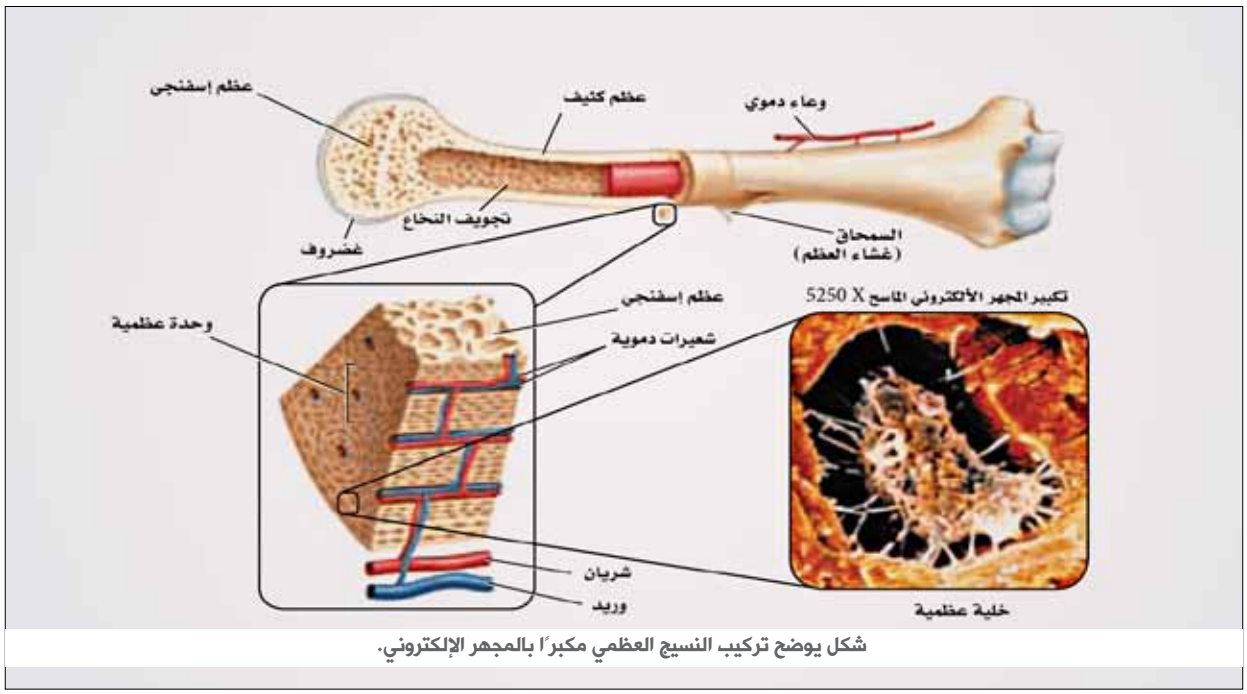

شكل يوضح تركيب النسيج العظمي مكبرًا بالمجهر الإلكتروني.

وهو مرض واسع الانتشار في المنطقة العربية، بل في العالم كله؛ فهو مرض يصيب واحدة من كل ثلاث نساء حول العالم، ويتمثل بفقدان العظام لكثافتها وتعرضها للترقق بسبب انخفاض معدل الكالسيوم. ويؤثر هذا المرض والألم المصاحب له على حيوية الإنسان وقدرته على ممارسة حياته الطبيعية بسبب ضعف العظام واحتمالية تعرضها للكسر بسهولة، إضافة إلى التغيرات التي يفرضها هذا المرض على الشكل العام للبنية، والتي تتمثل بضعف العضلات وانحناء القامة في مراحل متقدمة من المرض.

وتتسم المراحل المبكرة من ضعف الكتلة العظمية(Bone mass)، بخلوها من الآلام أو أي أعراض أخرى... ويظل المرض يعمل في صمت عبر عظام الجسم المختلفة إلى أن يصل المريض إلى مرحلة حدوث الكسور التلقائية أو الناتجة عن الإصابات البسيطة، أو حدوث التشوهات العظمية وفقدان القدرة على الحركة في أحيان كثيرة.

وعبر صفحات هذا المقال، سوف نطوف حول هذا الموضوع من أجل تقديم رؤية علمية حول المرض ومراحله وأسبابه وأعراضه، وطرق الوقاية والعلاج منه.

مراحل تكوين العظام

يعتبر الهيكل العظمي هو الدعامة الرئيسية الحاملة لجسم الإنسان لبقائه منتصبا، كما تعتبر العظام مشكلاً لأجزاء الجسم، وهي بمثابة اللب الذي تتكون حوله باقي الأجزاء.

كما يقوم الهيكل العظمي بحماية ما في داخله من أجزاء حيوية ومهمة مثل الدماغ المحمي داخل الجمجمة القاسية، ومثل القلب والرئة المحميين داخل القفص الصدري.

يتكون الهيكل العظمي من مجموعة من العظام ترتبط ببعضها عن طريق المفاصل، وتختلف أشكال العظام وأبعادها، ويمكن للعدد أن يختلف من إنسان إلى آخر بحسب عدد العظام الصغيرة التي تلتحم سويًا.

والعظام عبارة عن نسيج ضام صلب، وهي المكون الرئيسي لكل الحيوانات الفقارية، وتبدو العظام كأنها بلا حياة، لكنها في الحقيقة بناء حركي مكون من أنسجة حية كخلايا العظام والخلايا الدهنية والأوعية الدموية ومواد غير حية.

وتكونُ العظام على هيئة غضاريف قبل الولادة، والغضروف نسيج متين ولكنه لين ويبقى زمنا طويلا، ومع نمو الجنين تتكلس الغضاريف -أي تترسب عليها أملاح الكالسيوم- فتصبح نسيجًا عظميًّا صلبًا، وأول عظم يتقلص في الجسم هو عظم الترقوة.

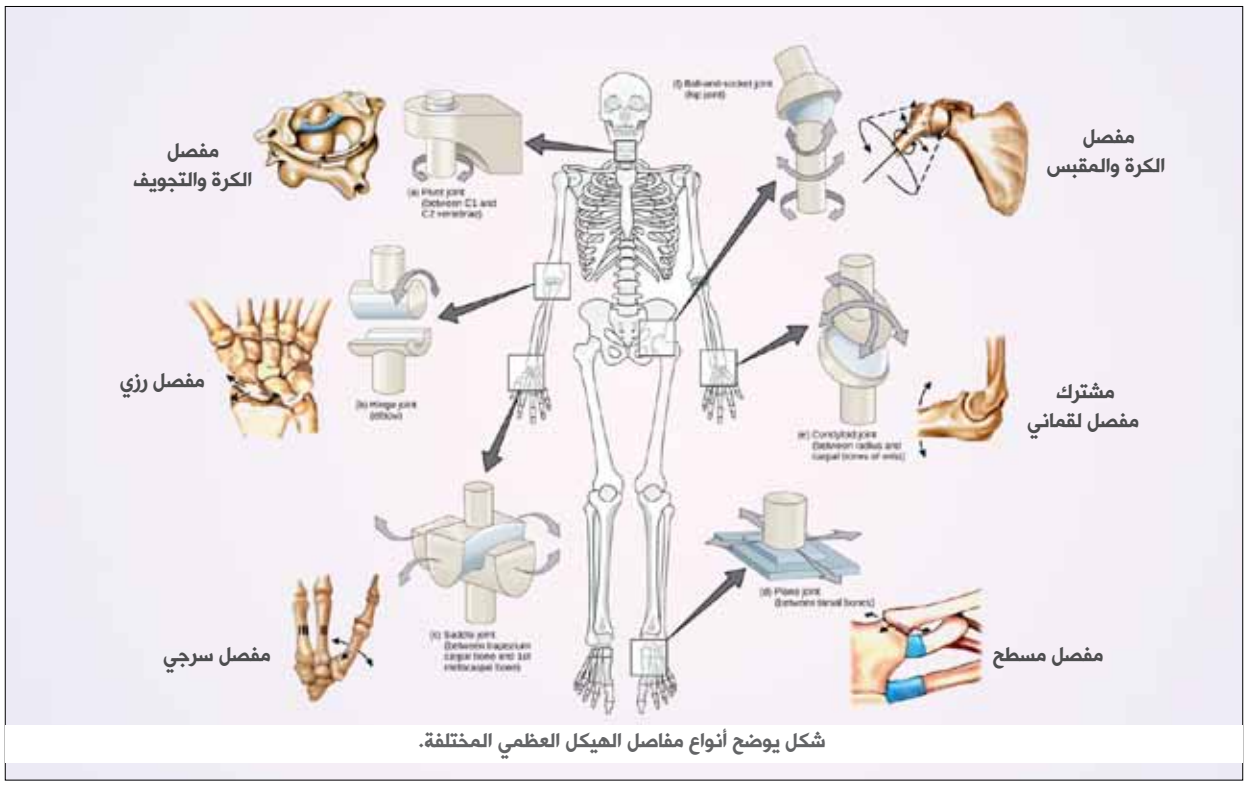

شكل يوضح أنواع مفاصل الهيكل العظمي المختلفة.

ويتكون كل عظم طويل من جزء طويل رفيع يسمى جسم العظم ونهايتين مستديرتين تكونان رأس العظم. وسطح العظم مغطى بغشاء متين يسمى السمحاق، يحتوي على عدد كبير من الأوعية الدموية الدقيقة تكسبه اللون الوردي، ذلك لأنّ العظام مثلها مثل أي نسيج في الجسم لا بد من تغذيتها بالدماء.

والعظام مركبة بحيث تنمو مع نمو الجسم، فعند نهاية الجسم عند طرفي العظام فيما يلي رأسيها، توجد طبقة رقيقة من النسيج الغضروفي تسمى طبقة النمو، ويسمح هذا التركيب بنمو جسم العظم من دون أن يتأثر رأسه، وفي الوقت ذاته ينمو رأس العظم من دون أن يتأثر جسمه. وعندما تتكلس طبقة النمو يتوقف نمو العظم.

ولا تستطيع العظام أن تتحرك من تلقاء نفسها. وحيث يجتمع عظمان يتكون المفصل وتتصل العظام بعضها ببعض بطرق مختلفة حتى يكون هيكل الجسم متيناً وتتوافر له في الوقت ذاته حركة حرة واسعة النطاق. ففي بعضها، كما في المرفق والركبة تتصل العظام بعضها ببعض بمفصل خطافي أو رزي وفي بعضها الآخر مثل مفصلي الحرقفة والكتف تتصل العظام بمفصل كروي تجويفي، وفي هذين النوعين من المفاصل، وفي المفاصل التي تشبههما، توجد طبقة من غشاء رقيق تفرز سائلاً يسمح بانزلاق طرفي العظمين بعضهما فوق بعض بنعومة ومن دون احتكاك.

وتتصل بعض العظام بعضها ببعض اتصالاً متيناً لا يسمح بأي حركة كما في عظام الجمجمة، ولذلك تسمى هذه المفاصل الثابتة أو غير المتحركة.

وتتعلق متانة العظام بحجمها وبكثافتها؛ أما كثافة العظام فتتعلق بمستويات الكالسيوم والفوسفور في الجسم، بالإضافة إلى المعادن الأخرى التي تدخل في تكوين العظام، وعندما تحتوي العظام على كمية من المعادن أقل من المطلوب لأداء وظائفها فإنها تفقد قوتها، وفي نهاية الأمر تفقد قدرة الدعم الداخلية الخاصة بها.

وتختلف أشكال العظام باختلاف منافعها؛ كالأضراس... فإنها لما كانت آلة للطحن جعلت عريضة، ولما كانت الأسنان للقطع جعلت مستدقة محتدة.

ولما كان الإنسان محتاجا إلى الحركة بجملة بدنه، وببعض أعضائه لقضاء حاجاته، لم يُجعل عظمه عظما واحدا، وإنما جعل عظاما متعددة، وجعل بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة كما ذكرنا، وكان قدر كل واحد منها وشكله بحسب الحركة المطلوبة منه، وشد أسر تلك المفاصل والأعضاء، وربط بعضها ببعض بأوتار وأربطة أنبتها من أحد طرفي العظم،

وألصق أحد طرفي العظم بالطرف الآخر كالرباط له، ثم جعل في أحد طرفي العظم زوائد خارجة عنه، وفي الآخر نُقَرًا غائصة فيه موافقة لشكل تلك الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها، فإذا أراد الإنسان أن يحرِّك جزءًا من بدنه لم يمتنع عليه لوجود تلك المفاصل... فتبارك الله أحسن الخالقين (12).

يقول الدكتور عبدالرازق نوفل في كتابه الله والعلم الحديث نقلا عن مجلة العلوم الإنجليزية :إن يد الإنسان في مقدمة العجائب الطبيعية الفذة، وإنه من الصعب جدا بل من المستحيل أن تبتكر آلة تضارع اليد البشرية من حيث البساطة والقدرة وسرعة التكيف... فحينما تريد قراءة كتاب تتناوله بيدك، ثم تثبته في الوضع الملائم للقراءة، وهذه اليد هي التي تصحح وضعه تلقائيا، وحينما تقلب إحدى صفحاته تضع أصابعك تحت الورقة، وتضغط عليها بالدرجة التي تقلبها بها، ثم يزول الضغط بقلب الورقة.. واليد تمسك القلم وتكتب به، وتستعمل كل الآلات التي تَلزم الإنسان من ملعقة إلى سكين إلى آلة الكتابة، وتفتح النوافذ وتغلقها، وتحمل كل ما يريده الإنسان(13).

ومن حكمة الله العظيمة في خلق الإنسان أن خلقه منتصبا واقفا على قدميه، لا يمشي على يديه، وجعل مركز ثقل الإنسان -مهما بلغ وزنه داخل قدميه، في مساحة لا تزيد على عشرين بوصة مربعة، ويتآزر الجهاز الحركي فتحرّك العضلات المفاصل، ويحرك العصب العضلات، فيقف الإنسان متوازنا لا يترنح يُمنة أو يسرة، ولا يسقط مرتطما بالأرض، ويمشي ويجري ويقفز ويصعد الدرج بتعاون الجميع.

كيف تحدث هشاشة العظام؟

لم يتوصل العلماء إلى الآن- إلى فهم تام لمجمل الأسباب التي تؤدي إلى وهن العظام وترققها بعد صلابتها وقوتها، لكن هذه العملية تتعلق بكيفية بناء العظام؛ فالعظم يتبدل باستمرار، إذ تنشأ أنسجة عظمية جديدة وتتحلل (تتفكك) أنسجة قديمة. وتُعرف هذه العملية بعملية تجدد -أو إعادة بناء- النسيج العظمي، أو تبدل النسيج العظمي.

(Modeling and Remodeling).

تحدث الدورة الكاملة لتجدد العظام في غضون فترة زمنية تقدر بثلاثة أشهر، حيث يعمل الجسم لدى صغار السن- على إنتاج النسيج العظمي الجديد بأسرع مما يستغرقه تفكك أو تحلل الأنسجة العظمية القديمة؛ أي أن الكتلة العظمية تزداد باستمرار في سن صغيرة، وتبلغ الكتلة العظمية أوجها في منتصف العقد الثالث من عمر الإنسان.

ثم تتواصل عمليات تجدد الأنسجة العظمية لاحقًا، لكن الجسم يفقد أنسجة عظمية أكبر من تلك التي يستطيع أن يبنيها، فلدى السيدات في مرحلة الإياس (سن اليأس -انقطاع الطمث) تزداد وتيرة تضاؤل حجم الأنسجة العظمية باستمرار، جراء الهبوط الحاد الذي يطرأ على مستوى تركيز هرمون الإستروجين في الدم. وبالرغم من كثرة العوامل التي تؤثر على فقدان الأنسجة العظمية إلا أن السبب الرئيسي للفقدان المتزايد للأنسجة العظمية لدى السيدات يعود إلى هبوط مستويات إنتاج الإستروجين خلال فترة انقطاع الطمث.

وتتعلق درجة الخطورة لإصابة شخص ما بهشاشة العظام بكمية الأنسجة العظمية التي تكون قد تراكمت في جسمه خلال الفترة العمرية الممتدة بين سن 25 و35 عاما (أوْج كمية الأنسجة العظمية)، كما تتعلق بالسرعة التي يفقد فيها الشخص الأنسجة العظمية فيما بعد، وبمعنى آخر، كلما كبر حجم الكتلة العظمية في أوجها كلما كان لدى الشخص مخزون أكبر من الكتلة العظمية، وبذلك يقل خطر الإصابة بهشاشة العظام في سن متقدمة نسبيا.

وفي حال وجود نقص في استهلاك كميات كافية من الكالسيوم وفيتامين (د) خلال العقود الثلاثة الأولى من حياة الإنسان، فقد يؤدي ذلك إلى هبوط في الكتلة العظمية في جسم هذا الشخص عند بلوغه السن التي تبلغ فيها الكتلة العظمية أوجها، مما يؤدي إلى فقدان هذا الشخص كتلة عظمية بسرعة أكبر نسبيًّا فيما بعد.

إذن، هشاشة العظام ستحدث بشكل تلقائي عند المسنين وخاصة عند السيدات-، ومن الممكن أن تظهر بشكل أسوأ عند هؤلاء الذين لم يتلقوا دعما غذائيا لمعادن العظام (الكالسيوم والفسفور بشكل أساسي) خلال فترات الطفولة والشباب.

عوامل تزيد من فرص الإصابة بالهشاشة

تتعدد العوامل التي تجعل بعض الأشخاص عرضة للإصابة بهشاشة العظام أكثر من بعضهم الآخر.

ويعتبر التقدم في العمر أحد أهم العوامل التي تزيد من مخاطر الإصابة بهشاشة العظام، وهو الذي عبَّر عنه القرآن الكريم بالوهن في قوله تعالى إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا، والآلية التي تسبب ذلك تتعلق بتركيب العظام ذاتها، حيث تزداد وتيرة الهدم وتقل وتيرة إعادة البناء، فتنخفض الكتلة العظمية شيئا فشيئا حتى يُصاب المريض بهشاشة العظام، كما أظهرت عدت دراسات أن للجنس والمنشأ القومي والعرق دورًا في الإصابة بترقق العظم وحدوث الكسور؛

فالنساء البيض اللواتي تجاوزن سن الحيض لديهن أعلى نسبة لحوادث الكسور، ويتعرضن لثلاثة أرباع كسور الورك التي تحدث في مجمل النساء في السن ذاته تقريبًا، وعلى أي حال فالمرض يصيب النساء من كل الأعمار.

وعلى الرغم من أن الرجال والنساء يحدث عندهم نقص في كثافة العظم المعدني، فإنّ الأمر مرتبط بتقدم السن ابتداءً من منتصف العمر، لكن النساء يتعرضن لخسارة أكبر سرعة في السنوات التي تلي توقف الحيض مباشرة، مما يجعل النساء أكثر عرضة لخطر الإصابة بهشاشة العظم بشكل مبكر.

كما أظهرت الدراسات أن الرجال المصابين بوهن العظم والنساء المصابات به قبل تجاوز سن توقف الطمث غالبًا ما يكون لديهم أسباب ثانوية للخسارة العظمية، وهي التي تنشأ عن الأدوية أو ظروف طبية أخرى أو أمراض أخرى بخلاف النساء بعد سن اليأس من الحيض.

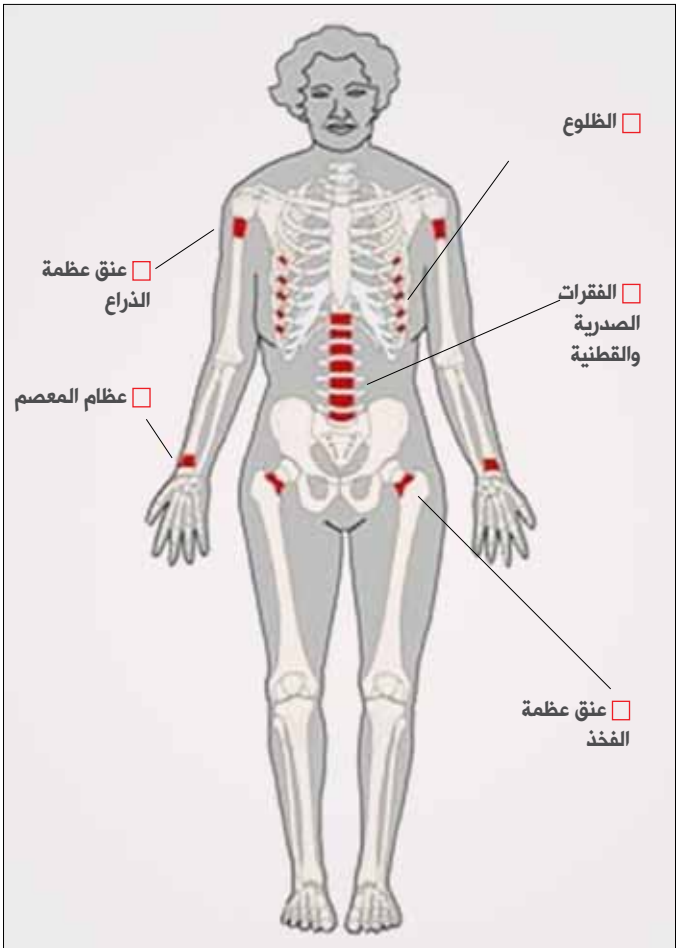

شكل يوضح المناطق الأكثر عرضة للكسور في حالات هشاشة العظام.

إن استخدام الكورتيزون هو السبب الأكثر شيوعاً للإصابة بهشاشة العظام الناجمة عن استخدام الدواء. ويترافق استخدام الكورتيزونات لمدة طويلة في التهاب المفاصل الرثياني Rheumatoid arthritis ومرض الرئة الانسدادي المزمن Chronic obstructive pulmonary disease مع حدوث نسبة عالية من الكسور، وعلى سبيل المثال، عُولجت في إحدى الدراسات مجموعة من المرضى بعشرة ملليجرامات بريدنيزون (Prednisone) لمدة عشرين أسبوعًا فأصيبوا بنقص 8% من كثافة العظم المعدنية في منطقة العمود الفقري. ويرى بعض الخبراء أن أي مريض يستخدم جرعة فموية من الكورتيزونات مدة تتجاوز الشهرين معرض لخطر خسارة عظمية كبيرة.

ويشيع حاليًا استخدام الكورتيزونات لعلاج أمراض التهابية عديدة عند الأطفال، وإن الآثار العظمية لهذا العلاج تحتاج إلى وضعها في الاعتبار إذا احتاج المريض إلى العلاج فترات طويلة.

وبالإضافة إلى الكورتيزون، هناك أدوية قد تُحدِث آثارًا جانبية مؤذية للعظم تصل إلى الإصابة بتخلخل العظام وهشاشتها، مثل هرمونات الغدة الدرقية الزائدة التي تزيد من إفراز هرمون الثيروكسين، ومضادات الحموضة المحتوية على الألمنيوم، والاستيرويدات التي تستخدم كمسكنات للآلام بشكل شائع، والهرمونات المحررة للجونادوتروبين المستخدمة لعلاج أمراض بطانة الرحم (endometriosis)، والميثوتريكسات المستخدمة لعلاج السرطان، والسيكلوسبورين A كعامل لتثبيط المناعة، والهيبارين المعالج لتجلط الدم، والكوليسترامين المستخدم للتحكم بمستوى كولسترول الدم... كل هذه الأدوية تحتاج إلى أخذ احتياطات عند استخدامها حتى لا تؤثر على كتلة العظام داخل الجسم.

والكالسيوم هو المادة الغذائية النوعية الأكثر أهمية في الحصول على قمة كتلة العظم، وكذلك في الوقاية والعلاج لوهن العظم، ويعد انخفاض نسبة الكالسيوم في الغذاء أو سوء امتصاصه بشكل يجعل الكمية الواصلة إلى العظام أقل من المعدلات المطلوبة من الأسباب الرئيسية لمرض هشاشة العظام.

ومن العوامل التي تؤدي إلى انخفاض الكالسيوم المتناول الإقلال من تناول منتجات الألبان بشكل عام، والاستهلاك المرتفع للمشروبات الفقيرة في الكالسيوم كالمشروبات الغازية، وقد جاءت تقارير تذكر أن حمض الفوسفور المستخدم في المياه الغازية يضعف العظم عبر تداخله مع قدرة الجسم على امتصاص واستعمال الكالسيوم.

ويعد فيتامين (د) عاملاً ضرورياً للحصول على الامتصاص المثالي للكالسيوم، وهذا يجعله مهمًّا لصحة العظم، ومن الشائع وجود مستويات منخفضة من الفيتامين عند المسنين.

وتعد البدانة ونقص الحركة من الأسباب المهمة لمرض هشاشة العظام؛ فمن المعروف أن الخلايا العظمية تستشعر الحركة لتحفِّز بدورها الخلايا البانية للعظم، فتعمل على تشكيل عظم قوي ومتين.

ويزيد التدخين من حدة مرض هشاشة العظام من خلال التقليل من امتصاص الجسم للكالسيوم، والتأثير المضاد على عمل هرمون الإستروجين (أحد الهرمونات الجنسية)، والذي له دور كبير في بناء العظام وحمايتها من الوهن والضعف.

وللتدخين ضرر مباشر على العظام وخاصة العظام القشرية cortical bone حيث وُجِدَ أنَّ التدخين يُنقص من سماكة العظام القشرية، وبالتالي فهو يُضعف من قوَّتها، ويجعلها عرضة لخطر الكسر.

وقد أظهرت دراسة صينية أنَّ التدخين القسري أو ما يُدعى بالسلبي (وهو استنشاق دخان التبغ الذي ينفثه المُدخِّنون، وكذلك الدخان المتصاعد من سجائرهم، من قبل الأشخاص غير المدخنين، رغم أنفهم !!) يمكن أن يزيد -بصورة واضحة- خطر الإصابة بهشاشة العظام، عند الرجال والنساء على حد سواء.

أعراض الإصابة

إن معظم المصابين بهشاشة العظام لا يعانون من أي أعراض مرضية، لذلك تسمى الهشاشة المرض الصامت، إلا أن ظهور الأعراض هو دليل على أن المرض قد بلغ مرحلة متقدمة تستلزم علاجًا عاجلاً.

ومن الأعراض التي يمكن ظهورها على مرضى هشاشة العظام انحناء في العمود الفقري، ونقص في الطول، وزيادة حجم البطن، وألم في الظهر والمفاصل، وسهولة كسر العظام عند ارتطامها بالأرض أو حمل طفل صغير أو بنوبة سعال حادة.

وكثيرا ما تكون العلامة الأولى للهشاشة العظمية هي حدوث آلام شديدة ومفاجئة بسبب الإصابة بكسر، وكبار السن أكثر عرضة للسقوط من غيرهم.

وأكثر الكسور مشاهدة هي كسور الفقرات الظهرية، حيث تُظهر الصور الإشعاعية بالإضافة إلى الهشاشة العظمية انخسافا في جسم الفقرة المصابة، ويمكن أن تحدث هذه الكسور في أكثر من فقرة واحدة، وثاني الكسور شيوعا هي كسور المعصم (نهاية عظم الكعبرة)، ثم كسور الورك، إلا أن الكسور يمكن أن تحدث في أي مكان من الجسم.

- وأخطر كسور هشاشة العظام هو كسر الورك؛ إذ إن أكثر من 20٪ من الذين يصابون بكسر في الورك يموتون خلال

سنة من الكسر، وغالبية الناجين سيعانون من إعاقة تحد من نشاطاتهم واستقلاليتهم مما يؤثر على نوعية حياتهم.

وفي دراسة حديثة وُجِدَ أن 80٪ من الناجين بعد كسر الورك يفضلون الموت على الحياة بسبب تدهور نوعية الحياة التي يعيشونها بعد الكسر، فأي مرض هذا الذي فيه 20٪ يموتون و80٪ من الناجين يتمنون الموت.. ألا يصدق فيه قول المتنبي:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا

وحسب المنايا أن يكن أمانيا

أما كسور الفقرات فتؤدي إلى آلام شديدة ولا سيما في الكسور الحادة، كما تؤدي إلى تناقص الطول وتقوس الظهر، وربما أدى ذلك إلى اضطراب في وظائف التنفس وعمل الجهاز الهضمي.

وسائل التشخيص

لا يمكننا أن نضع في الاعتبار في تشخيص هشاشة العظام الشكوى التي تؤرق المريض وتجعله يبحث عن حل لها عند الأطباء... إن المرض كما ذكرنا كاللص الصامت الذي لا تظهر أعراضه في الشهور أو ربما السنوات الأولى، وعند ظهور الأعراض قد يكون المرض قد وصل إلى مرحلة خطيرة يصعب ويطول العلاج فيها.... لذا فمن الخطأ التعويل على الصورة المرضية والأعراض التي تظهر على المريض في مثل هذه النوعية من الأمراض.

وربما كان من المدهش القول إن الأشعة السينية (أشعة إكس) غير موثوقة في رصد هشاشة العظام، إلا أن طرقًا أخرى دقيقة جدًّا تتوافر حاليًا على نطاق واسع، والاختبار القياسي هو قياس مقدار الامتصاص لطاقة أشعة إكس الثنائية..

Dual energy x-ray absorptiometry (DEXA)

وهو اختبار سريع، آمن ومن دون آلام، ولا يستغرق سوى 10 دقائق، إذ بينما يستلقي المريض على الطاولة، تقوم آلة بتوجيه شعاع فوتوني عبر عظامه، عادة عند العمود الفقري، أو الحوض، أو الرسغ، وهذه العملية تعرِّض الشخص لإشعاع لا يمثل سوى عُشر الإشعاع بأشعة إكس للصدر.

والوسيلة الأخرى هي تقنيات الموجات فوق الصوتية لقياس كثافة معادن العظام في الحوض؛ عظم الساق، والكعب، والإصبع. ورغم أنها ليست بدقة DEXA، إلا أن بمقدورها تقديم تقديرات عن كثافة العظام، من دون آلام، خلال أقل من دقيقة واحدة.

ويعتبر قياس كثافة العظام مُهمًّا على وجه الخصوص للرجال الذين يخضعون للعلاج بالحرمان من الأندروجين لعلاج سرطان البروستاتا، وللرجال الذين عانوا من حدوث الكسور، وخاصة إن حصلت الكسور لديهم من صدمة واحدة صغيرة فقط (كسور الضعف)، كما يجب على الرجال الذين فقدوا أكثر من بوصتين من طولهم، والذين لديهم أقل من 20 سنة والذين يعانون من الضعف الشديد، الخضوع للاختبارات، وإن كان هناك انحناء في الظهر يَمْنَع المريض من ملامسة الجزء الخلفي للرأس لجدار يقف عنده منتصبًا، فعليه إجراء اختبار (DEXA).

ومن الجدير بالذكر أن جهاز DEXA دقيق ويعطي صورة دقيقة عن كتلة العظم، بل يقارنها بما يجب أن تكون عليه لدى سن الشباب ولدى الفئة العمرية للمريض.

يحتاج الجهاز إلى فنِّي حاذق متمرن متمرس، يعرف كيف يضع المريض في الوضعية الصحيحة والتي لها أثر كبير في النتائج وهناك دورات خاصة تقوم بها المنظمة الدولية لقياس كثافة العظم للرفع من كفاءة العاملين في هذا المجال.

كما يحتاج الجهاز إلى معايرة يومية خاصة وعناية فائقة.

ونظرًا إلى أنَّ الدراسات السابقة كان أكثرها على النساء فإنه لا توجد لدينا حتى الآن الأرقام الخاصة بالرجال، إلا أننا نطبق ما حصلنا عليه من دراسات الإناث على الرجال إلى أن نحصل على الأرقام الصحيحة للرجال.

ولا ننسى ضرورة الاستجواب والفحص السريري في عملية تقييم مريض الهشاشة والتي تشتمل على معرفة نمط الحياة؛ فالخاملون والكسالى أكثر عرضة للمرض، والتغذية لها دور حيوي، وبناءً عليه، فإنَّ أولئك الذين اعتادوا على أغذية تحتوي على الكالسيوم وفيتامين (د) تكون عظامهم أقوى من أولئك الذين يملأون المعدة بأكل الوجبات السريعة (Junk food) وبالمياه الغازية.

ولأن للوراثة دورًا، فلا بد من السؤال عن الهشاشة لدى العائلة ولا سيما عند حصول كسر لدى الأم أو الأب بعد سن الخمسين.، وبعد تشخيص هشاشة العظم يجب إجراء

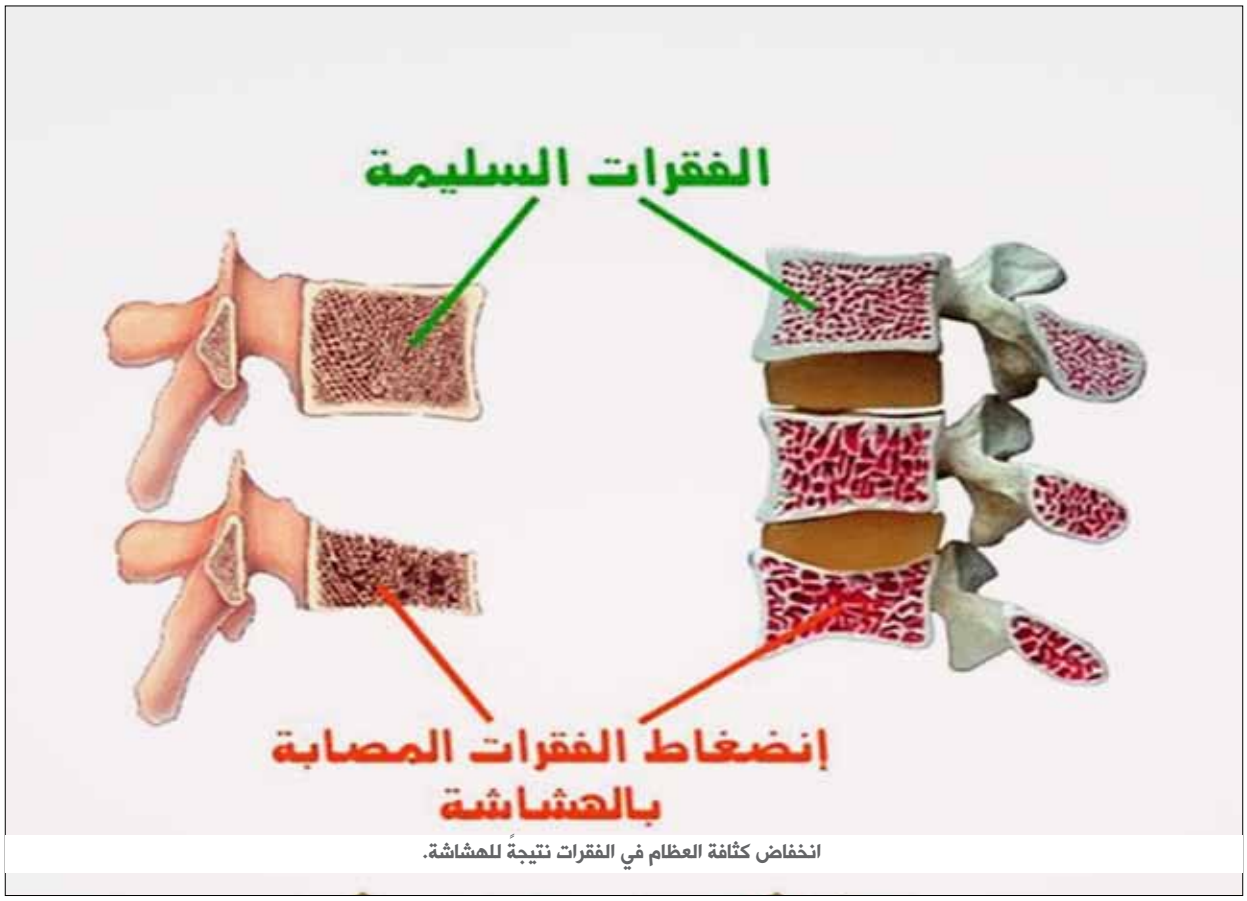

انخفاض كثافة العظام في الفقرات نتيجةً للهشاشة.

الفحوص المخبرية لتحري وجود الأسباب الثانوية المؤدية إلى هذا المرض.

ونظرًا إلى أنَّ غالبية الهشاشة لدى الرجال تكون ثانوية أي نتيجة لأمراض أخرى- فلا مناص من إجراء شتى الاختبارات والفحوص السريرية والمخبرية وكذلك الإشعاعية في محاولة للوصول إلى السبب الذي أدى إلى الهشاشة، والتي تشتمل -ولكن لا تقتصر- على تحاليل الدم لمعرفة مستوى مختلف أملاح العظام كالكالسيوم والفوسفات والماغنيسيوم، وإنزيمات العظام، وكذلك مستوى فيتامين (د) والغدة الجار درقية، وربما يلجأ الطبيب إلى دراسات أعمق لتشخيص حالات نقص الهرمونات أو تسرب الكالسيوم من الكلى.

علاج هشاشة العظام

يهدف العلاج إلى العمل على زيادة نسبة كثافة العظام، وذلك عن طريق واحد من العقاقير الطبية التي تستخدم إما لتقليل عملية الهدم في العظام أو لتنشيط عملية البناء، والعقاقير المتوافرة كثيرة، ويقوم الطبيب المختص باختيار العقار المناسب لكل مريض تبعاً لدرجة هشاشة العظام وجنس المريض ووجود أمراض أخرى وسبب حدوث الهشاشة.

ويُعد العلاج البديل بالهرمونات -وخاصة الإستروجين- علاجا واعدا، وقد يبطئ الحالة عند النساء، إلا أن استخدام الإستروجين في السيدات اللاتي تجاوزن سن انقطاع الطمث قد يؤدي إلى أضرار خطيرة كحدوث الأورام مثلا.

وقد أظهرت تجارب سريرية عشوائية أن تناول مقدار كالسيوم كافٍ من الطعام، أو من داعمات الطعام كالأدوية، يزيد من كتلة العظم المعدنية في العمود الفقري spine وينقص الكسور الفقرية وغير الفقرية. إن انخفاضًا جيدًا في كسور الورك والكسور غير الفقرية قد لُوحظ عند المرضى الذين يتلقون الكالسيوم مع الكالسيفيرول (فيتامين د3) في التجارب التوقعية. ويعتقد أن الجرعة العظمى المؤثرة من فيتامين D لا تتجاوز 1000 وحدة دولية/اليوم

إن كل النتائج العلاجية لمعظم التجارب السريرية لمختلف

العلاجات الدوائية لهشاشة العظام تم الحصول عليها باستخدام الدواء مع دعمه بالكالسيوم والفيتامين D، كما أن العلاج الأفضل لهشاشة العظام مهما كان الدواء المستخدم يتطلب تناول مقدار كالسيوم وفيتامين D بالمستويات الموصى بها لأنَّ المصدر المفضل للكالسيوم هو الأطعمة.

إن المشاركات غير الدوائية في العلاج التي توجه لمنع السقوط والتخفيف من أثر السقوط ومن حدوث الكسور قد أعطت نتائج مشجعة، ومن هذه المشاركات غير الدوائية التمارين الرياضية التي تزيد القوة والتوازن عند كبار السن، واستخدام واقيات الورك Hip protectors لامتصاص الصدمة عند السقوط أو تخفيف أثرها. إن النشاط البدني ضروري لاكتساب العظم الجيد وصيانته خلال سن البلوغ، كما أن الراحة التامة بالسرير وانعدام الجاذبية (كما يحصل في الفضاء) لها آثار وخيمة على العظم.

ومن الأهمية بمكان منع حدوث الكسر الأول؛ إذ إنه متى ما تعرض المريض للكسر الأول فإنّ ذلك سيقدح شرارة حدوث كسور متتابعة في فترات متقاربة، ولمنع الكسر الأول وما يليه من الكسور نحتاج إلى تضافر عوامل عدة، أهمها اتباع أساليب الوقاية التي تساعد على تكوين كتلة عظمية قوية، والتقليل من فرص التعثر والسقوط.

وللنشاط البدني تأثير وراء تقوية العظم بشكل مباشر، كزيادة القوة العضلية والتوازن، مما قد ينقص خطر حدوث الكسر بدرجة كبيرة.

إن التجارب على المسنين استخدمت بنجاح أشكالاً مختلفة من التمارين لتخفيف عدد مرات السقوط، وللتمارين الشديدة -(كالجري) فائدة؛ فهي تحرض تراكم المحتوى المعدني للعظام في الهيكل العظمي، وتبقى التمارين الخفيفة كالمشي ذات تأثيرات مفيدة على نواح صحية ووظيفية أخرى، لكن تأثيرها على كثافة العظام المعدنية يبقى في حده الأدنى.

والكسر الذي يحدث في العظام نتيجة هشاشتها يجب أن يتم علاجه؛ فعلى سبيل المثال، بالنسبة إلي كسر الفخذ (الورك) يتم علاجه جراحيًّا، أما بالنسبة إلى فقرات الظهر التي تُحدث آلاما شديدة في الظهر فهناك دعامات للظهر، وأيضًا يمكن العلاج جراحيًّا، ولكن قد يستمر الألم فترة طويلة، كما يجب علاج الأمراض التي قد تؤدي إلى الهشاشة، مثل حالات زيادة إفراز الغدة الجار درقية وغيرها كأمراض الكلى، مع الحرص على المتابعة المستمرة مع المختصين في علاج هشاشة العظام لمتابعة التطور العلاجي.

الوقاية أولاً وأخيرًا

هشاشة العظام هو مرض ذو جذور منذ الطفولة، وحجر الأساس في منع هذا المرض الفتَّاك هو بناء ثروة عظمية في سِنَّي الطفولة ومقتبل العمر؛ وذلك بالتغذية السليمة المعتمدة على غذاء متوازن يحتوي على الكميات الكافية من الكالسيوم وفيتامين (د)، وبالرياضة والنشاط ولا سيما رياضات التحمل (كالمشي والجري ولعب التنس) والتعرض المعتدل لأشعة الشمس من دون حائل مدة 15-10 دقيقة بُعيد الشروق أو قبيل الغروب، والابتعاد ثم الابتعاد عن التدخين الذي ثَبُت ضرره على العظام كما هو ثابت على أجهزة الجسم الأخرى.

الكالسيوم

الكالسيوم هو المعدن الأساسي في تكوين كتلة العظام، ولذا فإنَّ العناية بتوفير كميات كالسيوم مناسبة لبناء الهيكل العظمي وتجديده هي العنصر الأساسي في الوقاية من مرض هشاشة العظام.

يحتاج جسم الإنسان ما بين 300 إلى 3000 ملليجرام من الكالسيوم تقريبًا يوميًّا، وذلك تبعاً للعمر والجنس والوضع الصحي؛ فالأطفال والمسنّون هم أكثر حاجة إليه من غيرهم، والنساء أكثر من الرجال، والحوامل والمرضعات أكثر فأكثر. وتتوافر حاليًا بيانات كافية لتحديد المقدار المناسب الموصى به من الكالسيوم في مختلف مراحل العمر.

يوصي المعهد الطبي الأمريكي بتناول 800 ملج/اليوم كالسيوم للأطفال من سن السادسة حتى الثامنة، و1300ملج/اليوم للأطفال والمراهقين من سن التاسعة إلى السابعة عشرة، ومع ذلك يُقدَّر أن 25% فقط من الأولاد و10% من البنات من سن 9 إلى 17 عاماً يطبقون هذه التوصيات.

أما البالغون فيجب المحافظة على مقدارٍ يومي من الكالسيوم ما بين 1000 إلى 1500ملج/اليوم، لكن 50 إلى 60% من السكان فقط يحققون هذه التوصية.

بعض الأغذية المُوصى بها التي تساعد على الحد من هشاشة العظام.

فيتامين (د)

فيتامين D ضروري للحصول على الامتصاص المثالي للكالسيوم، وهذا يجعله مهمًّا لصحة العظم، ويجعل نقصه ذا نتائج سلبية على كفاءة العظام وصلابتها، ومن الشائع وجود مستويات منخفضة من الفيتامين D عند المسنين.

ومن مصادر فيتامين (د) زيوت الأسماك، وخاصة زيت كبد الحوت، والأسماك بشكل عام، وخاصة السردين والتونه، والألبان، والبيض، والزبدة، والمكسرات، ولا يفوتنا التنويه بأهمية التعرض المعتدل لأشعة الشمس؛ إذ إنها تُحثُّ على تشكيل فيتامين (د) من الطبقة الدهنية الموجودة تحت الجلد.

التمارين الرياضية المنتظمة

إن النشاط البدني المنظم له فوائد صحية كثيرة لكل الأعمار، وقد تم التحقق من فوائد النشاط البدني عبر دراسات راصدة وتجارب سريرية عشوائية.

يوجد دليل قوي على أن النشاط البدني المبكر في الحياة يسهم في الحصول على ذروة أعلى لكتلة العظم، وهنالك بعض الأدلة التي تشير إلى أن التمارين الشديدة يُحتمل أن تكون الأكثر فائدة، كما أن للتمارين الرياضية في منتصف العمر فوائدا صحية عديدة، ولكن الدراسات حول تأثيرها على كثافة العظم قليلة.

أما التمارين في أعمار أكبر من ذلك مترافقةً مع الكالسيوم وفيتامين D بكمية كافية فمن المحتمل أن لها تأثيرًا متواضعًا في إبطاء سرعة نقص كثافة العظم المعدنية.

ومن الواضح أن التمارين في الأعمار المتقدمة حتى فوق تسعين عامًا تفيد أكثر من مجرد مضاعفة حجم العضلات والقوة في الأفراد ضعيفي البنية.

وهناك أدلة مقنعة تؤكد أن التمارين عند المسنين تحسِّن من أداء الفرد وتطيل فترة استقلاله عن معونة الآخرين؛ وبالتالي تسهم في تحسين نوعية الحياة.

وهناك دلالات على الدور الوراثي في مرض الهشاشة العظمية، وتنصح العائلات التي يشيع لديها مرض هشاشة العظام، وكذلك النساء اللاتي بلغن سن اليأس، بإجراء الفحوص الدورية للكشف المبكر عن هشاشة العظام والبدء باكرا بالعلاج قبل حدوث الكسور، وفي بعض الحالات يُعطى العلاج وقائيًّا لمنع حدوث الهشاشة العظمية.

تَجَنَّبْ هذه الأشياء

لا بُدَّ للمريض أو الشخص الأكثر عرضة للإصابة بهشاشة العظام أن يقلل من تناوله للَّوز والكاجو والبنجر والسبانخ؛ فهذه الأطعمة غنيَّة بحمض الأوكزاليك الذي يثبِّط امتصاص الكالسيوم.

كما يُوصَى بتجنب المشروبات والأغذية المحتوية على الفوسفور؛ مثل المشروبات الغازية والأغذية الحيوانية الغنيَّة

بالبروتين، والكحول، وتجنب التدخين، وعدم الإكثار من السكر والملح، والتقليل من استهلاك الموالح والطماطم فهذه الأطعمة تقلل من امتصاص الكالسيوم.

بهذه التطوافة السريعة حول مرض هشاشة العظام؛ مسبباته، وأعراضه، وعلاجه، وطرق الوقاية منه، نرجو أن نكون قد وُفِّقنا في تقديم مادة نافعة للقراء تسهم في ثراء معرفيٍّ حول موضوع هشاشة العظام، وتؤدي إلى إدراك مخاطره، ومن ثم بذل الجهود نحو الوقاية والعلاج.

إنَّ مرض هشاشة العظام يُكلِّف الدُّول ميزانيات كبيرة نتيجة الكسور الناتجة عن المرض، ويؤثر سلبًا على نوعية الحياة وجودتها لدى الكثيرين، إننا بحاجة إلى صياغة مشروعات قومية وخطط صحِّية وحملات توعوية وإعلامية تهدف إلى اتخاذ التدابير اللازمة للوقاية من مرض هشاشة العظام منذ مرحلة الطفولة، وهذا من شأنه أن يقلل من حجم المشكلة ويفتح طريقًا نحو صحةٍ أفضلَ للمجتمع وأفراده.

جدول يوضح مصادر الكالسيوم في الأطعمة المختلفة

المادة الغذائية	الكمية	السعرات الحرارية	الكالسيوم/ مليجرام
حليب كامل الدسم	كوب (240) ملتر	150	290
حليب قليل الدسم	كوب (240) ملتر	120	297
حليب خال الدسم	كوب (240) ملتر	90	200
لبن كامل السم	كوب (240) ملتر	150	250
لبن منزوع الدسم	كوب (240) ملتر	100	400
زبادي كامل الدسم	كوب (240) ملتر	150	255
زبادي قليل الدسم	كوب (240) ملتر	100	415
جبنة كرافت	20 جرام	150	204
جبنة قريش	كوب (240) ملتر	229	211
جبنة قليلة الدسم	20 جرام	120	297
الأقط (المدير)	100 جرام	427	982
سمك السالمون مع الطماطم	100 جرام	150	882
السردين+طماطم	100 جرام	220	620
السبانخ	كوب	50	244

هوامش الدراسة

1. Golob, AL; Laya, MB (May 2015). "Osteoporosis: Screening, Prevention, and Management.". The Medical clinics of North America 99 (3): 587–606.

2. Handa, R; Ali Kalla, A; Maalouf, G (August 2008). "Osteoporosis in developing countries." . Best practice & research. Clinical rheumatology 22 (4): 693–708.

3. Willson, T; Nelson, SD; Newbold, J; Nelson, RE; LaFleur, J (2015). "The clinical epidemiology of male osteoporosis: a review of the recent literature.".

Clinical epidemiology7: 65–76.

4. Poole KE, Compston JE (December 2006). "Osteoporosis and its management". BMJ 333 (7581): 1251–6.

دور وسائل الإعلام في تحقيق التنمية المستدامة

د. رضا عبد الواجد أمين

تؤدي وسائل الإعلام في العصر الحديث أدوارًا مهمةً ومؤثرةً في حياة الأفراد والمجتمعات، إذ يُناط بها تسليط الأضواء على المؤثرات السلبية التي تُعيق مسيرة التنمية في المجتمعات المتقدمة والنامية على حدٍّ سواء، بل ويُناط بها أخذ زمام المبادرة في طرح الخطط وإثارة المعرفة الإنسانية فيما يتعلق بعمليات الوعي المعرفي والسلوكي التي تؤدي بدورها إلى تنمية المجتمع بشكلٍ عام. وتعيش الكرة الأرضية الآن مجموعة من المشاكل التي تحيط بالبيئة والموارد والطاقة وسوء استخدام الإنسان لها، وهو ما يجعل من قضايا التنمية قضية إنسانية مُلحَّة لا غنىً عنها بالنسبة إلى شعوب العالم، وبالأخص بالنسبة إلى الشعوب النامية أو الأقل نموا، ومنها البلدان الإسلامية بطبيعة الحال، التي خلفت لها قوانين العولمة ذات النزعة الغربية بوجه عام والأمريكية بوجه خاص العديد من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية الطاحنة.

SMS

والعالم الآن لا يبدو أنه يتجه صوب مستقبل مستدام، وإنما في اتجاه مجموعة متنوعة من الكوارث البشرية والبيئية المحتملة. لكن منذ مؤتمر ستوكهولم المتعلق بالبيئة البشرية الذي انعقد في بداية عقد السبعينيات من القرن الماضي، بدأ العالم يعترف بأن مشكلات البيئة لا تنفصل عن مشكلات الرفاه البشري ولا عن عملية التنمية الاقتصادية بصورة عامة، وأن كثيرا من الأشكال الحالية للتنمية تنحصر في الموارد البيئية التي يعتمد عليها معاش البشر ورفاههم في آخر المطاف. وبهذا الاعتراف أنشأت الأمم المتحدة اللجنة العالمية المكلفة بالبيئة والتنمية لدراسة هذه القضايا والتقدم بتوصيات في هذا الشأن[1].

وهذه الورقة البحثية تحاول إلقاء الضوء على مفهوم التنمية أولا، وعلى مفهوم التنمية المستدامة ثانيا، وكيف تطور هذا المفهوم في أجندة الاهتمام الدولي، وما يرتبط به من مفاهيم أخرى كالتنمية البشرية والتنمية المحلية ومحاولة تحقيق مجتمع الرفاه الذي هو حلم تطور الحياة الإنسانية، ثم تركز الورقة على تحديد الدور الذي يقوم به الإعلام وما يمكن أن يقوم به بإمكاناته المتعددة في تفعيل قضايا التنمية المستدامة على مستوى العالم بشكل عام، وعلى مستوى بلدان العالم الإسلامي بشكل خاص.

تحتوي هذه الورقة على عدة نقاط:

مفهوم التنمية، ومفهوم التنمية المستدامة، وكيف تطور مفهوم التنمية المستدامة، ثم إطلالة سريعة على الإشكاليات التنموية التي جلبتها العولمة الغربية إلى العالم الإسلامي مثل انتشار الفقر والبطالة، وكيف تتغلب بلدان العالم الإسلامي عليها، ومتطلبات التنمية المستدامة، والرؤية الإسلامية لتحقيق هذه التنمية، ودور وسائل الإعلام في تحقيق التنمية المستدامة من خلال مدخل نشر وتبني الأفكار المستحدثة، ومدخل ترتيب أولويات الجمهور نحو قضايا التنمية المستدامة، وما يمكن أن تقدمه وسائل الإعلام في النهوض بقضايا التنمية المستدامة في العالم الإسلامي، وأخيرا خلاصة الدراسة وتوصياتها، والله أسأل أن يرزقنا الإصابة في القول، وأن يعفو عن الزلل والخطأ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

تعريف التنمية:

تشير كلمة التنمية في معاجمنا العربية إلى الزيادة والكثرة، فكلمة (نما) الشيء نموا ونماء أي زاد وكثر[2].

وهي بمفهومها المبسط:

– العمليات التي يمكن بها توحيد جهود المواطنين والحكومة لتحسين الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في المجتمعات المحلية لمساعدتها على الاندماج في حياة الأمة والمساهمة في تقدمها بأقصى قدرٍ مستطاع.

– زيادة محسوسة في الإنتاج والخدمات شاملة ومتكاملة مرتبطة بحركة المجتمع تأثيرًا وتأثرًا، مستخدمة الأساليب العلمية الحديثة في التكنولوجيا والتنظيم والإدارة [3].

وكما أجمعت عليها الأدبيات الإنسانية، وكما حددها فريق التنمية العربية الإنسانية، الذي أصدر حتى الآن تقريرين حول التنمية؛ فإنَّ تعريف التنمية له شقان:

خلق فرص حياة أفضل، بالمعنى العام، للأجيال القادمة.

دراسة علمية للإمكانيات المجتمعية، وتوظيفها التوظيف الأفضل للصالح العام.

أما التعريف الذي تبناه تقرير التنمية العربية فيقول (إن للبشر، لمجرد كونهم بشرا، حقًّا أصيلا في العيش الكريم، ماديًّا ومعنويًّا، جسدًا ونفسًا وروحًا، وبهذا فإن عملية التنمية تنشد توسيع خيارات البشر بما يُمكِّنهم من تحقيق الغايات الإنسانية الأسمى، وهي الحرية والعدالة والكرامة الإنسانية والرفاه الإنساني.

وليس في تلك المطالب جديد، وربما تختصر بكلمتين اثنتين؛ العدالة والمساواة. (العدالة) هي مفهوم تراثي عربي قديم، فـ(العدل أساس الملك) أما المساواة فهي من المبادئ التي نص عليها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ونجد لها صدى لا يغيب عن العقل السليم في الأديان السماوية.

محطة التنمية الأخيرة هي الوصول إلي (حالة الرفاه) في المجتمع، ولا يقتصر مفهوم (الرفاه) على التنعم المادي، بل يشمل الجوانب الإنسانية الكريمة مثل التمتع بالحرية، واكتساب المعرفة، وتحقيق الذات، ولا يتأتى ذلك إلا بالمشاركة الفعالة في الاجتماع البشري[4].

أما التنمية عند محي الدين صابر فهي: مفهوم حديث لأسلوب العمل الاجتماعي والاقتصادي في مناطق محددة يقوم على أسس وقواعد من مناهج العلوم الاجتماعية والاقتصادية، وهذا الأسلوب يقوم على إحداث تغيير حضاري

في طريقة التفكير والعمل والحياة عن طريق إثارة وعي البيئة المحلية وأن يكون ذلك الوعي قائما على أساس المشاركة في التفكير والإعداد والتنفيذ من جانب أعضاء البيئة المحلية جميعا في كل المستويات عمليا وإداريا[5].

وهناك من يُعرِّفها بأنها حركة تهدف إلى تحسين الأحوال المعيشية للمجتمع في مجمله على أساس المشاركة الإيجابية لهذا المجتمع وبناء على مبادرة المجتمع إن أمكن ذلك، فإذا لم تظهر المبادرة تلقائيا تكون الاستعانة بالوسائل المنهجية لبعثها واستثارتها بطريقة تضمن لنا استجابة حماسية فعَّالة لهذه الحركة [6].

مفهوم التنمية المستدامة: Sustainable Development

أضيفت صفة المستدامة إلى التنمية لتصبح (التنمية البشرية المستدامة)؛ وذلك لصيانة حقوق الأجيال القادمة في التنمية، حيث نلاحظ أنه مع التطور المذهل للتكنولوجيا أصبح هناك خطر حقيقي على استمرار الحياة والموارد الطبيعية والتوازن البيئي الذي يؤثر على حق الأجيال القادمة في التنمية. ومن هنا أصبح من الضروري وضع ضوابط للعلاقة بين الإنسان والطبيعة وهو الأمر الذي لم يتعرض له ميثاق الأمم المتحدة ولا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ربما لأن هذا الخطر لم يكن ماثلاً في ذلك الوقت عند صدورها، وظهر هذا الخطر بشكل واضح بعد ثورة التكنولوجيا واكتشاف الأثر السيئ للتوسع الصناعي على البيئة. ومن هنا جاء الاهتمام بقضايا البيئة وحق الإنسان في بيئة نظيفة [7].

ورغبة من بعض المؤلفين في جعل مفهوم التنمية المستدامة أقرب إلى التحديد، وضعوا تعريفا ضيقا لها ينصب على الجوانب المادية للتنمية المستدامة. ويؤكد هؤلاء المؤلفون ضرورة استخدام الموارد الطبيعية المتجددة بطريقة لا تؤدي إلى فنائها أو تدهورها، أو تؤدي إلى تناقص جدواها المتجددة بالنسبة إلى الأجيال المقبلة. وذلك مع المحافظة على رصيد ثابت -بطريقة فعالة- أو غير متناقص من الموارد الطبيعية، مثل التربة والمياه الجوفية والكتلة البيولوجية.

والتنمية المستدامة هي تنمية قابلة للاستمرار وتهدف إلى الاهتمام بالعلاقة المتبادلة ما بين الإنسان ومحيطه الطبيعي وبين المجتمع وتنميته ،والتركيز ليس فقط على الكم بل على النوع مثل تحسين توزيع الدخل بين أفراد المجتمع وتوفير فرصة العمل والصحة والتربية والإسكان،، وتهدف التنمية المستدامة أيضاً إلى الاهتمام بشكل رئيسي بتقييم الأثر البيئي والاجتماعي والاقتصادي للمشاريع التنموية، وحيث إن البيئة هي المخزون الطبيعي للموارد التي يعتمد عليها الإنسان وإن التنمية هي الأسلوب الذي تتبعه المجتمعات للوصول إلى الرفاهية والمنفعة،؛ لذا فإن الأهداف التنموية البيئية يكمل بعضها بعضا[8].

وشهد العالم العربي انطلاقة برامجه للتنمية المستدامة منذ الإعلان العربي للبيئة والتنمية الصادر عن المؤتمر الوزاري الأول حول الاعتبارات البيئية في التنمية الذي عقد في تونس في أكتوبر 1986م والبيان العربي عن البيئة والتنمية وآفاق المستقبل الصادر في القاهرة في سبتمبر 1991م.

تطور مفهوم التنمية المستدامة:

بعد سقوط حائط برلين وانتهاء الحرب الباردة، حدثت طفرة كبيرة في مجال حقوق الإنسان، وأخذت تتسع دائرة هذه الحقوق لتشمل مواضيع جديدة، وصار الربط بين جميع الحقوق بحيث لا تقبل التجزئة كما لا تقبل التراتب، وكان من بين هذه الحقوق الجديدة الحق في التنمية.

وصدر عام 1986 إعلان الحق في التنمية الذي يجعل من التنمية حقًّا من حقوق الإنسان وليس مجرد مطلب يطالب به الأفراد، وللحكومات أن تستجيب أو لا تستجيب من دون أن يقع عليها حرج.

وعَّرف هذا الإعلان التنمية بأنها مسار اقتصادي واجتماعي وثقافي وسياسي شامل يهدف إلى النهوض المطرد برفاهة كل الناس بالاعتماد على مشاركتهم الفعلية الحرة.

وأكّد الإعلان أن كل الجوانب المتعلقة بالتنمية مترابطة وبالتالي أصبحت حقًّا، وجزءًا لا يتجزأ من منظومة حقوق الإنسان.

وجاءت موافقة الدول النامية على هذا الحق لتعني أن هذه الدول أصبحت مسؤولة أمام شعوبها عن القيام بالتنمية الاقتصادية وما يتطلبه ذلك من أبعاد اجتماعية وسياسية وثقافية.

أما موافقة الدول المتقدمة على هذا الحق فقد جاءت لتعني أنها أصبحت مسؤولة عن مساعدة الدول النامية التي تفتقر إلى الموارد المالية والفنية الكافية لتحقيق التنمية الاقتصادية، ولذلك ترددت هذه الدول في البداية وتحفظت على إعلان الحق في التنمية وعادت ورفعت هذه التحفظات في المؤتمر العالمي لحقوق الإنسان في فيينا عام 1993 بإعلانها الموافقة على هذا الإعلان.

وجاء برنامج العمل الذي أقره مؤتمر فيينا ليربط بين حقوق الإنسان والتنمية كما ربط بينهما وبين الديمقراطية، وأصبحت التنمية حقًّا من حقوق الإنسان يترابط مع بقية الحقوق التي لم يعد من الممكن تجزئتها.

كذلك أصبحت الديمقراطية حقا من حقوق الإنسان- كما وصفها أمين عام الأمم المتحدة السابق كوفي عنان في مؤتمر قمة الألفية، عندما قال إن الديمقراطية حق من حقوق الإنسان لا تكتمل ممارستها إلا باكتمال بقية الحقوق. ومنذ ذلك الوقت أصبح هناك تلازم كامل بين حقوق الإنسان والتنمية والديمقراطية[9].

وقد انتهت اللجنة في تقريرها المعنون بمستقبلنا المشترك إلى أن هناك حاجة إلى طريق جديد للتنمية، طريق يستديم التقدم البشري لا في مجرد أماكن قليلة أو لبضع سنين قليلة، بل للكرة الأرضية بأسرها وصولا إلى المستقبل البعيد. والتنمية المستدامة بحسب تعريف وضعته هذه اللجنة سنة 1987 تعمل على تلبية احتياجات الحاضر من دون أن تؤدي إلى تدمير قدرة الأجيال المقبلة على تلبية احتياجاتها الخاصة.

وقد قبلت فكرة التنمية المستدامة بأوسع معانيها وتم إقرارها على صعيد واسع، إلا أنه تبين أن ترجمة هذه الفكرة إلى أهداف وبرامج وسياسات عملية، يعتبر مهمة أصعب، نظرا إلى أن الأمم المتحدة تخضع لقوى رأسمالية لا ترى من مصلحتها التنازل عن نمط إنتاجها المدمر للبيئة. ورغم ذلك يعتبر مؤتمر الأمم المتحدة المتعلق بالبيئة والتنمية جهدا ذا أهمية كبيرة في اتجاه الاهتداء إلى أرضية مشتركة بين المصالح المتعارضة والشروع في عملية التغيير التي تحتاج إليها التنمية المستدامة [10].

ولا تعاني الإنسانية فقط من التناقص الحاد في المواد الغذائية بل تعاني أيضا من مخاطر متنوعة أخرى تتهددها:

- فقد حدثت ضغوط شديدة على موارد التربة العالمية والغابات المدارية منذ 150 سنة أي منذ انتشار نمط الإنتاج الرأسمالي وما رافق ذلك من مد

استعماري واستغلال فاحش لأراضي وغابات المستعمرات شمل مختلف القارات. ومعلوم أن من نتائج هذا الغزو الاستعماري حرمان سكان المستعمرات من التنوع البيولوجي الذي كانت تحتوي عليه زراعاتهم المحلية لفائدة زراعات موجهة نحو التصدير، والتي لا تلبي احتياجاتهم الفيزيولوجية.

ومعلوم أن تدمير المناطق الخضراء خلال القرنين الماضيين تسبب في مخاطر جمة أصابت تنوع الكائنات الحية والمجتمعات الإيكولوجية التي تعيش فيها بشكل لم تتعرض له في أي وقت مضى خلال الخمسة والستين مليون سنة المنصرمة من وجود الكوكب.

- كما تعرضت المياه العذبة للتناقص بشكل مستمر ومتزايد نتيجة تزايد المسحوبات من المياه من أجل الزراعة ومن أجل إرواء عطش الأعداد المتزايدة من سكان الكوكب، إضافة إلى أن تزايد السكان والتنمية الصناعية يزيدان من تلوث المياه ونذرتها؛ كما يشكل نمط الإنتاج الصناعي المعتمد من طرف البلدان الصناعية الرأسمالية منذ قرنين من الزمان أحد العوامل الرئيسية المهددة للبيئة.

متطلبات التنمية المستدامة:

تتطلب التنمية المستدامة تحسين ظروف المعيشة لجميع الناس من دون زيادة استخدام الموارد الطبيعية إلى ما يتجاوز قدرة كوكب الأرض على التحمل.

إن من أهم التحديات التي تواجهها التنمية المستدامة هو القضاء على الفقر

من خلال التشجيع على اتباع أنماط إنتاج واستهلاك متوازنة، من دون الإفراط في الاعتماد على الموارد الطبيعية[11].

يحتاج تحقيق هدف التنمية المستدامة إلى إحراز تقدم متزامن في أربعة أبعاد على الأقل، هي الأبعاد الاقتصادية، والبشرية والبيئية والتكنولوجية. وهناك ارتباط وثيق فيما بين هذه الأبعاد المختلفة، والإجراءات التي تتخذ في أحدها من شأنها تعزيز الأهداف في بعضها الآخر. ومن ذلك مثلا أن الاستثمار الضخم في رأس المال البشري، ولا سيما فيما بين الفقراء، يدعم الجهود الرامية إلى الإقلال من الفقر، وإلى الإسراع في تثبيت عدد السكان، وإلى تضييق الفوارق الاقتصادية وإلى الحيلولة دون مزيد من التدهور للأراضي والموارد، وإلى السماح بالتنمية العاجلة واستخدام مزيد من التكنولوجيات الناجعة في جميع البلدان.

والابتكار التكنولوجي هو في حد ذاته موضوع محوري متباين الجوانب. فالاستدامة تتطلب تغييرا تكنولوجيا مستمرا في البلدان الصناعية للحد من انبعاث الغازات ومن استخدام الموارد من حيث الوحدة الواحدة من الناتج. كما يتطلب تغيرا تكنولوجيا سريعا في البلدان النامية، ولا سيما البلدان الآخذة بالتصنيع، لتفادي تكرار أخطاء التنمية، وتفادي مضاعفة الضرر البيئي الذي أحدثته البلدان الصناعية. والتحسين التكنولوجي هو بدوره أمر مهم في التوفيق بين أهداف التنمية وقيود البيئة.

وتتطلب التنمية المستدامة تغييرا جوهريا في السياسات والممارسات الحالية، لكن هذا التغيير لن يتأتى بسهولة، ولن يتأتى أبدا من دون قيادة قوية وجهود متصلة ونضالات مستمرة من طرف القوى العاملة والشعوب المقهورة في بلدان كثيرة[12].

الإسلام وتنمية البيئة:

وردت العديد من الآيات والأحاديث التي توضح استراتيجية السلوك والإدارة البيئية ومقاومة التصحر والاهتمام بالتنويع البيولوجي والطبيعة وعدم إهدار الموارد الطبيعة، ومن تلك الآيات ما ورد في سورة الأعراف الآية74 (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد

عاد وبوأكم في الارض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين)، وفي سورة النحل الآية 14 (وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله) وفي سورة الأعراف الآية 31 (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) وفي سورة المرسلات الآية(25-26-27) (ألم نجعل الأرض كفاتاً× أحياءً وأمواتاً× وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماءً فراتا) ومما ورد عن خاتم المرسلين محمد (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: (الناس شركاء في ثلاثة الماء والكلأ والنار). (جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً... إلخ الحديث). (دخلت امرأة النار في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض). (من قطع سدرة صوّب الله رأسه إلى النار). (ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة). (إذا قامت القيامة على أحدكم وفي يده فسيلة فليغرسها).

حثّ الإسلام على الاهتمام بمختلف الجوانب التي ترتبط بالبيئة وعلاقتها بالإنسان، وأساليب المحافظة عليها واستغلال الموارد الطبيعية استغلالاً حسناً بلا استنزاف وإسراف أو تلويث[13].

الإعلام وقضايا التنمية المستدامة

لا يزال دور وسائل الاتصال والإعلام على اختلاف أنواعها مثارا للجدل بين الباحثين؛ فبالرغم من أنه ثبت إحصائيا وجود معامل ارتباط بين التعرض لوسائل الاتصال من ناحية، والمتغيرات الاقتصادية الاجتماعية المرتبطة بالتنمية من ناحية أخرى، إلا أنه لم يثبت وجود علاقة سببية بينهما، فيدعي فيجن أن الإعلام سبب ونتيجة في ذات الوقت في عملية التحديث، بينما يذكر روجرز أن دور الإعلام مساعد أو غير مباشر للعوامل الاجتماعية الأخرى المؤدية إلى التنمية [14].

والأفراد هم هدف التنمية؛ لذا لا بد أن يكون لكل منهم دور في تطوير المجتمع، الأمر الذي يحتاج إلى توعية وتثقيف متصلين، وتعليم وتدريب مستمرين.

وتأتي أهمية استخدام وسائل الإعلام المختلفة في الدول النامية من حاجة تلك الدول إلى إعلام يواكب خططها الإنمائية، ويعمل على خلق المشاركة من جانب الأفراد في عجلة التنمية؛ فهو السبيل إلى نشر المعرفة بخطط الدولة وأهدافها.

وقد أكّدت عدة دراسات أجراها علماء الاتصال وجود علاقة إيجابية بين الإعلام والتنمية؛ منها الدراسة التي أجراها ولبر شرام على مائة دولة من الدول النامية لإلقاء الضوء على العلاقة بين الاتصال الجماهيري والتنمية، حيث توصل إلى أن معامل الارتباط بين النشاط التنفيذي لوسائل الإعلام وبين نتائج تنفيذ خطط التنمية قد وصل إلى 72٪، وقد يكون أعلى من ذلك لوجود مجموعة من العوامل السلبية التي تَحُول دون تنفيذ الخطط في كل من التخطيط الإعلامي والتخطيط للتنمية بالدقة المطلوبة، وبالتالي فإن هذه العوامل السلبية قد أضعفت مستوى الارتباط وقللت درجته إلى 72٪ [15].

دور وسائل الإعلام في التنمية من خلال نظرية نشر الأفكار المستحدثة:

اهتم علماء الاجتماع بكيفية تغيير النظم الاجتماعية عن طريق نشر الأفكار المستحدثة، أما علماء الاتصال فاهتموا بكيفية استخدام الأنشطة الاتصالية لدعم ونشر الموافقة والقبول للمنتجات والأفكار الجديدة. واستطاعت الدول المتقدمة تحقيق نجاحات كبيرة في هذا الشأن.

وكان للعالم (أفريت روجز) السبق في بناء نظرية الاتصال والأفكار المستحدثة، وقد أشار إلى أهمية الاتصال في عملية التغيير الاجتماعي التي تمر بثلاث مراحل متعاقبة وهي:

الاختراع الذي يتم بواسطته خلق أو تطوير الأفكار الجديدة.

الانتشار، ويقصد به العملية التي يتم بواسطتها توصيل هذه الأفكار الجديدة إلى الجمهور.

النتائج، ويقصد بها التغيرات التي تحدث داخل النظام الاجتماعي كنتيجة لتبني أو رفض الأفكار الجديدة.

عملية اتخاذ القرارات في الفكرة المستحدثة تمثل بالمراحل التالية:

مرحلة الوعي والمعرفة بوجود الفكرة الجديدة من خلال وسائل الأتصال المختلفة.

مرحلة الاهتمام بالفكرة الجديدة والبحث عن معلومات عنها.

مرحلة التعميم؛ حيث يختار الفرد تبني الفكرة المستحدثة أو رفضها.

مرحلة التجريب أو المحاولة؛ حيث يحاول الفرد تجربة الفكرة الجديدة على نطاق ضيق لتقرير الموافقة أو الرفض.

مرحلة التبني؛ حيث يستخدم الفرد الفكرة الجديدة بصفة مستمرة على نطاق واسع. وتتم المرحلة الأخيرة بناء على عدة صفات في الفكرة وهي:

تميزها عن الأفكار أو المنتجات السابقة.

التوافق والانسجام مع النظم والتقاليد القائمة في المجتمع.

درجة تعقد الفكرة الجديدة وصعوبة فهمها أو استخدامها.

القابلية للتجريب على نطاق ضيق.

القابلية للملاحظة؛ أي درجة رؤية نتائج الفكرة المستحدثة من قبل الآخرين[16].

ولا شك أن الفرد يجمع معلومات عن الفكرة في مختلف مراحلها، وتختلف مصادر المعلومات باختلاف كل مرحلة؛ فوسائل الاتصال الجماهيرية أكثر تأثيراً في المرحلة الأولى إذ تتسم بقدرتها على جعل الأشياء معروفة للجمهور.

دور وسائل الإعلام في التنمية من خلال نظرية ترتيب الأولويات عند الجمهور (وضع الأجندة):

يؤكد علماء الاتصال وجود علاقة إيجابية بين ما تركز عليه وسائل الإعلام في رسائلها وبين ما يراه الجمهور مهماً، فهي تسهم بدور كبير في ترتيب الأولويات لدى الجمهور، ومن ثم فإنها تقوم بمهمة تعليمية؛ حيث ترشد وتعلم الناس عما يتحدثون، وتبعاً لهذا فإن الجمهور لا يتعلم من وسائل الإعلام فحسب حول المسائل العامة والأمور الأخرى ولكنه يتعلم كذلك كم تبلغ هذه المسائل من أهمية تبعاً لما تلقاه من قِبَل وسائل الإعلام.

وبمعنى آخر، فإن الإعلاميين يلعبون دوراً مهماً في تشكيل حياتنا الاجتماعية حينما يمارسون دورهم في اختيار وعرض الأخبار علينا وترتيب الأولويات فيها.

وظيفة وضع الأجندة للاتصال الجماهيري تتمثل في مقدرتها للتأثير على تغيير المعرفة عند الأفراد وقيامها ببناء تفكيرهم، وهنا يكمن أهم تأثير لوسائل الاتصال وهو مقدرتها على ترتيب العالم وتنظيمه عقلياً لنا.

إن ترتيب الأولويات كوظيفة تأثيرية لوسائل الإعلام تتمثل عملياً في كونها نصيراً أكبر في صنع الثقافة السياسية للجمهور بحيث إنها تربط بين تصور إدراك الناس للواقع السياسي وبين الشؤون السياسية اليومية.

ويمكن أن تلعب وسائل الإعلام من خلال وظيفة وضع الأجندة دوراً اجتماعياً بتحقيق الإجماع حول بعض الاهتمامات عند الجمهور التي يمكن أن تترجم فيما بعد باعتبارها رأياً عاماً.

وجدير بالذكر أن بعض أصحاب القرار في المؤسسات المختلفة يستطيعون أن يؤدوا دوراً في ترتيب الأولويات وضع الأجندة- حيث يمكنهم إشراك وسائل الإعلام في تبني بعض قضايا الأجندة المؤسساتية وطرحها على الجمهور والتركيز عليها إلى أن تصبح من الأولويات المنتظمة لأجندة وسائل الإعلام.

وتجدر الإشارة إلى أن وسائل الإعلام تستطيع أن تحقق فعاليتها القصوى كوسائل تنموية إذا أخذت في الاعتبار عدة عوامل منها: ما يمتلكه المتصل من خبرة، ودراية بالبيئة التي يتم فيها الاتصال، وقدرة على تحديد الهدف تحديداً دقيقاً، وفهم للجمهور ومعرفة خصائصه واهتماماته والعوامل الانتقائية

المؤثرة في سلوكه الاتصالي، وإعداد الرسالة المناسبة لنوعية الجمهور والقادرة بأسلوبها على اجتذابه مع مراعاة اختيار الوسيلة المناسبة [17].

خلاصة الدراسة:

الإنسان هو الثروة الحقيقية لمختلف الأمم والحضارات. ومن هنا جاء التحول في مفهوم التنمية الذي كان يعتمد فقط على التقدّم الاقتصادي والدخل الوطني المرتفع وصار يركز على النواة الأساسية للأمة والمجتمع وهي الفرد. وجاء المفهوم المعاصر للتنمية البشرية من قبل برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ليتبنى مبدأ التعامل مع الإنسان كمحور لأي مبادرة تنموية.

ويشكل الإنسان محور التعاريف المقدمة بشأن التنمية المستدامة؛ حيث تتضمن تنمية بشرية تؤدي إلى تحسين مستوى الرعاية الصحية والتعليم والرفاه الاجتماعي. وهناك اعتراف اليوم بهذه التنمية البشرية على اعتبار أنها حاسمة بالنسبة إلى التنمية الاقتصادية . وبحسب تعبير تقرير التنمية البشرية الصادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي فإن الرجال والنساء والأطفال ينبغي أن يكونوا محور الاهتمام فيتم نسج التنمية حول الناس وليس الناس حول التنمية. وتؤكد تعريفات التنمية المستدامة بصورة متزايدة أن التنمية ينبغي أن تكون بالمشاركة، بحيث يشارك الناس ديمقراطيا في صنع القرارات التي تؤثر في حياتهم سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وبيئيا.

وتضطلع وسائل الإعلام بالقيام بدور مؤثر وفعال في تحقيق التنمية المستدامة؛ حيث أثبتت الدراسات قدرة هذه الوسائل على إيصال وشرح وتفسير الأفكار المستحدثة تمهيدا لإقناع الجمهور المتلقي لهذه الرسائل، كما أنها قادرة على حشد الجماهير حول قضايا التنمية المستدامة، وخاصة في الوقت الذي قفزت فيه وسائل الإعلام قفزات تكنولوجية هائلة في السنوات العشر الماضية من خلال الانتشار الكبير لشبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)، وقدرتها على حمل مضامين إعلامية متنوعة ومتعددة إلى أي بقعة في العالم.. كما أن الرصد الإعلامي لأداء الشبكة يثبت قيامها بدور مهم في عمليات التنمية المستدامة في الشق الاجتماعي والثقافي المتعلق بنشر ثقافة الحقوق الأساسية التي كفلتها المواثيق الدولية ومن قبلها التعاليم السماوية والتعاليم الإسلامية على وجه الخصوص كالحق في حرية الرأي والتعبير...إلخ.

وتخلص الورقة أيضا إلى أن وسائل الإعلام قادرة على وضع أجندة الجماهير وإعادة ترتيب أولويات المرحلة الراهنة من مراحل التطور الإنساني التي تحتاج إلى مزيد من الوعي بالمخاطر البيئية التي تحدق بالأرض والموارد الطبيعية.

كما خلصت الورقة البحثية إلى أن وسائل إعلام البلدان الإسلامية يمكنها -إن أرادت- طرح قضايا التنمية المستدامة مستندة إلى المرجعية العقدية التي تحكم ثقافة الشعوب الإسلامية من خلال القرآن الكريم والسُّنة النبوية المطهرة التي حفلت تعاليمهما بالحث على تطوير وتنمية الحياة وعمارة الكون بما يكفل الحياة الكريمة الآمنة واللائقة لبني البشر، وذلك من خلال آيات قرآنية كثيرة وأحاديث نبوية ترشد المسلمين إلى إصلاح واقعهم لتفادي الإشكاليات التي أفرزتها العولمة الغربية على المستويات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وتوصي الورقة بضرورة أن تتبنى وسائل الإعلام الإذاعية والتلفزيونية والصحفية والشبكية قضايا التنمية المستدامة وربطها بالإطار المرجعي المنسجم مع الثقافة الإسلامية، وتخصيص البرامج القادرة على توعية الجمهور بتلك القضايا.

كما توصي الورقة بأن تتضافر جميع الجهود في بلدان العالم الإسلامي، وتتوحد الرؤى للقضاء على معوقات التنمية المستدامة، فتوصي بضرورة زيادة التعاون بين العالم الإسلامي في القضاء على ظاهرة البطالة والفقر من خلال الآليات المتاحة على الصعيدين السياسي والاقتصادي، وضرورة وجود كيان اقتصادي وحدوي يوحّد رايه الدول الإسلامية تحت عملة واحدة، وتشريعات اقتصادية واحدة، وأهداف مستقبلية مشتركة.

والله من وراء القصد، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هوامش الدراسة

1- http: //www.annahjaddimocrati.org/pages/economie/a-adib_developpement_durable.htm

2 ـ مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز: القاهرة، الهيئة العامةلشئون المطابع الأميرية،1990، ص636

3 ـ محمد سيد محمد، الإعلام والتنمية (القاهرة: دار الفكر العربي، 1988م)ص 25

4 ـ محمد الرميحي، التنمية السياسية والتنمية الشاملة، متاح في www.alrumaihi.info/tanmy/doc1.doc

5 ـ كمال التابعي، تغريب العالم الثالث دراسة نقدية في علم اجتماع التنمية، القاهرة، دار المعارف، 1993،ص23

6 ـ رشيد أحمد عبد اللطيف، أساليب التخطيط للتنمية، المكتبة الجامعية، 2002، ص 19.

7 ـ محمد فائق، التنمية وحقوق الإنسان (مكتبة الإسكندرية: مؤتمر الإصلاح الرابع، 1 مارس 2007م)

8 ـ د عبد الله عبد القادر نصير، البيئة والتنمية المستدامة التكامل الاستيراتيجي للعمل الخيري، ورقة مقدمة إلى مؤتمر الخير العربي الثالث، الأمانة العامة لمؤتمر الخير العربي، لبنان، الاتحاد العام للجمعيات الخيرية في المملكة الأردنية الهاشمية، عمان 24ـ22 يونيو/ حزيران 2002.

9 ـ محمد فائق، التنمية وحقوق الإنسان (مكتبة الإسكندرية: مؤتمر الإصلاح الرابع، 1 مارس 2007م)

10 ـ عبد السلام أديب، أبعاد التنمية المستدامة، النهج الديمقراطي، متاح على الإنترنت في: http: //www.annahjaddimocrati.org/pages/economie/a_adib_developpement_durable.htm

11 ـ التنمية المستدامة وأهدافها، ودور تقنية المعلومات، مجلة العالم الرقمي (ملحق مع جريدة الجزيرة السعودية) العدد 156،2 أبريل 2006

عبد السلام أديب، مصدر سابق

12 ـ د عبد الله عبد القادر نصير، البيئة والتنمية المستدامة التكامل الاستيراتيجي للعمل الخيري، ورقة مقدمة إلى مؤتمر الخير العربي الثالث، الأمانة العامة لمؤتمر الخير العربي، لبنان، الاتحاد العام للجمعيات الخيرية في المملكة الأردنية الهاشمية، عمان 22ـ24 يونيو/ حزيران 2002.

13 ـ د.سعيد محمد السيد، الإعلام الإنمائي النظرية والتطبيق، مجلة البحوث الإعلامية (جامعة الأزهر: قسم الصحافة والإعلام، العدد الأول، أكتوبر 1993م) ص 152

14 ـ فاطمة فيصل العتيبي، الإعلام والتعليم شركاء في التنمية، المؤتمر الدولي الأول للتربية الإعلامية (الرياض، 14 صفر، 1428هـ)

15 ـ رضا عبد الواجد أمين، استخدامات النخب المصرية للصحافة الإلكترونية وتأثيرها على علاقتهم بالصحافة الورقية، دكتوراه منشورة (جامعة الأزهر: كلية اللغة العربية، قسم الصحافة والإعلام، شعبة الصحافة والنشر، 2005م) ص ص 58ـ63

16 ـ فاطمة فيصل العتيبي، الإعلام والتعليم شركاء في التنمية، المؤتمر الدولي الأول للتربية الإعلامية (الرياض، 14 صفر، 1428هـ

17 ـ فاطمة فيصل العتيبي، الإعلام والتعليم شركاء في التنمية، المؤتمر الدولي الأول للتربية الإعلامية (الرياض، 14 صفر، 1428هـ

غوستاف مالر:

أضربُ الجدار برأسي، فينهار الجدار

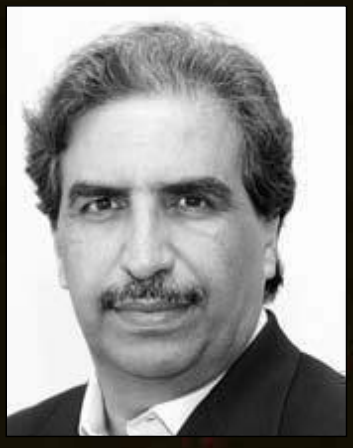

عبدالقادر عقيل

في صيف عام 1910 التقى المؤلف الموسيقي النمساوي غوستاف مالر بالمفكر والعالم سيغموند فرويد في مدينة ليدن الهولندية، واستمر هذا اللقاء بينهما أربع ساعات متواصلة، كتب بعدها فرويد ملاحظة مقتضبة في دفتره:

كان كمن يهدم عموداً واحداً في بناية شاهقة.

تلك كانت ملاحظة دقيقة عن الحالة الذهانية التي وصل إليها مالر، قبل عام من وفاته، فعقليته المعقدة، وعصبيته، وقلقه، وحصاره النفسي، وكآبته، وخوفه الدائم من الموت، وإيمانه بالقوى الغيبية، تجعل من المستحيل على أي محلل نفسي أن يعالج مثل هذه الحالة في جلسة واحدة.

هذا الوضع النفساني المعقد كان القاسم المشترك في كل الأعمال الموسيقية العظيمة التي أبدعها غوستاف مالر في سنواته الخمسين التي عاشها (7 يوليو 1860 - 18 مايو 1911).

يقول مالر إن من أراد أن يفهم حياتي، عليه أن يستمع إلى سيمفونيتي الأولى والثانية، فلقد وضعت فيهما كل خبرتي وآلامي.

في أغنية (الوداع) نستمع إلى صوت ميتزو - سوبرانو تنشد:

(في كل مكان، حيث الخلود، تشرق المسافات،

بلونها الأزرق،

إلى الأبد.. إلى الأبد)

وفي حين تتكرر كلمة (إلى الأبد) تبدأ الموسيقى في التراجع، حتى تصل إلى العدم، حيث لا وجود للحياة، ولا للموت.

ذات مرة قال مالر: (إن زمني لم يحن بعد)، وكان محقاً في كلامه، فموسيقاه، التي كانت تمثل قمة القلق والألم والوضع الإنساني المتأزم في أوائل القرن العشرين، لم تحظ بالنجاح الكبير والاعتراف من نقاد زمانه، ولم تثر إلا تلك المجموعة الراديكالية الشابة من المؤلفين الموسيقيين، الذين بدءوا بالتمرد على الأشكال النمطية والتقليدية للموسيقى الكلاسيكية، والذين كانوا يحظون بدعمه واهتمامه.. لذا كان أرنولد شونبرغ، رائد الموسيقى اللامقامية، يطلق عليه اسم (القديس) تقديراً لمكانته.

إن تأثير مالر يمكن ملاحظته بوضوح في أعمال المؤلفين الموسيقيين الطليعيين: ألبان بيرغ، وأرنولد شونبرغ، وديمتري شوستاكوفتش، وأنطون ويبرن، وأرثر هونيغر، وكارل هانز شتوكهاوزن، وألكسندر فون زيملنسكي. وامتد تأثيره إلى مؤلفي موسيقى الأفلام، وخاصة ماكس شتينر، وولفغانغ كورنغولد، وجون ويليامز. ونذكر بوجه خاص استخدام الأداجيو، من سيمفونيته الخامسة، كثيمة لرائعة المخرج لوتشيانو فيسكونتي الموت في البندقية (1971)، وهي مقطوعة حالمة، بطيئة جداً، كتبت للقيثارة والأوركسترا.

لم يذع صيت مالر، كمؤلف موسيقى، إلا بعد منتصف القرن العشرين، بعد أن شاهد العالم كل الآلام والخطايا والكوارث التي كانت سيمفونياته تنبئ بها، ساعده في ذلك اختراع الاسطوانات التي سهَّلت إعادة وتكرار سماع سيمفونياته الطويلة والمعقدة.

يصف المؤلف الموسيقي وقائد الأوركسترا المعروف ليونارد برنشتاين سيمفونية مالر العاشرة بأنها (إعلان عن موت القرن العشرين)، وبأنها (الوداع الأخير لحلم الرومانتيكية الجميل).

يستحضر غوستاف مالر الموت الشخصي، والفناء البشري، والبعث، في كل أعماله الموسيقية. وفكرة الموت استحوذت عليه منذ طفولته، فقد كان الابن الناجي من أربعة عشر طفلاً، مات منهم ثمانية وهم أطفال، بالإضافة إلى موت والديه، وانتحار شقيقه، ووجود أخٍ معاق عقليا احترف الإجرام، وجنون أخته الكبرى.

لكن فاجعته الحقيقية كانت في الموت المفاجئ لابنته الصغيرة (ماريا آنا)، التي لم تتجاوز عامها الرابع، نتيجة إصابتها بالحمى القرمزية في عام 1907، هذا الفقد الذي هز كيانه، وجعله يؤمن تماماً بأنه كان السبب في وفاتها بعد تأليفه موسيقى (أغاني موت الأطفال) للشاعر الألماني فردريك ركيرت.

تعلقه العاطفي بأمه (ماريا مالر)، العرجاء، المصابة بمرض في القلب، والتي عاشت حياة مضطربة مع زوج شديد القسوة (بيرنهارد مالر)، وتحمُّلها ضربه وطرده لها من البيت مراراً، جعله يبحث عن حب حقيقي يجد فيه سعادته

المفقودة، وتمثل هذا الحب في زواجه عام 1902 من أجمل فتيات فيينا، البرجوازية آريان ألما شيندلر (1879 - 1964)، ابنة الفنان أميل جاكوب شيندلر، التي كانت في التاسعة عشرة من عمرها، وتصغره بعشرين عاماً.

ورغم أنها كانت مؤلفة موسيقية، وفنانة تشكيلية، إلا أن مالر أنذرها قبل الزواج بأن عليها أن تترك كلياً التأليف الموسيقي والرسم لتتفرغ لبيتها، ولم يلتفت إلى أعمالها الموسيقية إلا بعد تسع سنوات من زواجهما، الذي بدأ يتفكك، ويهشم روح مالر بعنف، وخاصة بعد اكتشافه لعلاقتها مع المهندس المعماري والتر غروبيوس، بعد لقائها به في مصحة لمعالجة إدمانها للكحول.

سيمفونيته العاشرة العظيمة كانت نتاجاً لانهياره العصبي الحاد، بعد اكتشافه لهذه العلاقة، مثلما كانت رائعته (أغاني الأرض) نتاجاً لوفاة ابنته الصغيرة.

مآسي مالر التراجيدية استكملت حلقاتها في عام 1907 بإقالته من إدارة أوبرا فيينا، نتيجة لتحريض الصحافة السياسية في النمسا، ثم اكتشاف إصابته بمرض خطير في قلبه لا علاج له، هذا المرض الذي أودى بحياته القصيرة في 18 مايو 1911 قبل أن يكمل سيمفونيته العاشرة، ويقال إن آخر كلمة رددها قبل موته كانت (موزارت)، وطلب أن يدفن بالقرب من ابنته الصغيرة خارج فيينا، وأن تجرى مراسم جنازته من دون موسيقى ومن دون كلام، وأن لا يكتب على شاهد قبره سوى اسمه، من دون أي تفاصيل أخرى.

قال مالر ذات مرة: «هل أنا حيوان متوحش، في حديقة للحيوان، حتى يحدق فيّ الآخرون؟».

قالوا عنه إنه مريض عصابي، ونرجسي، ومصاب بجنون الاضطهاد، وشاذ جنسيا، وعنيف في تعامله مع الموسيقيين في البروفات، وما تحوّله من اليهودية إلى المسيحية إلا سعياً وراء الوظيفة، إلا أن مالر سيذكر في تاريخ الموسيقى على أنه قائد أوركسترا من الطراز الأول، وأحد أعظم المؤلفين الموسيقيين المجددين في القرن العشرين، ويمكن مقارنة موقعه في تطوير الموسيقى بمكانة بيتهوفن وفاغنر، اللذين كان متأثراً بهما.

تولى مالر لثلاثة عقود قيادة أوركسترا أكثر من 2000 أوبرا و300 حفلة موسيقية، بالإضافة إلى أعماله الموسيقية الضخمة، وكان مديراً لأوبرا بودابست، وفيينا، وليبزغ، وهامبورغ، وبراغ، وميتروبوليتان في نيويورك.

كان أسلوبه في قيادة الأوركسترا نموذجاً لكثير من قادة الأوركسترا في القرن العشرين: برونو والتر، وأوتو كليمبر، وليونارد برنشتاين، وموريس ابرافانال، وبيير بوليز.

هذا الفنان، الذي ألف عشر سيمفونيات ضخمة ومعقدة، كان يقول عن نفسه بسخرية: أنا مؤلف موسيقي صيفي، هذا لأنه كان يرهق نفسه طوال العام في قيادة الأوركسترا، وفي الصيف يعتزل ويقضي إجازته في تأليف أعماله السيمفونية.

أستخدم مالر في سيمفونياته الضخمة، التي تصل مدة بعضها أحياناً إلى ساعتين مع ست حركات بدلاً من أربع، آلات لم تكن مألوفة في الأوركسترا كأجراس الأبقار، وقرع المطارق، وأصوات الطيور، وأبواق الصيد، والقيثارة، والماندولين، ونغمات المارش (كما في السيمفونية الثالثة)، وإدخال كورال الأطفال (كما في السيمفونية الأولى). واستفاد من استخدام فرانز شوبرت وروبرت شومان للأغاني، وطورها في أعمال أوركسترالية متكاملة، بدلاً من مصاحبة البيانو لها فقط.

في سيمفونيته الثامنة التي تعرف باسم (سيمفونية الألف عازف) استخدم أوركسترا ضخمًا، مع ثمانية عازفين منفردين، وثلاث مجموعات كورال، بما في ذلك كورال الأطفال، وآلات موسيقية إضافية.

أما سيمفونيته العاشرة فقد بناها وفقاً للأسلوب اللامقامي، الذي أتاح له استخدام هارمونيات متغيرة ومتحولة، وإيقاعات معقدة.

أسماء سيمفونياته تعبير آخر عن أعماق نفسه المتعبة: فالأولى (الجبار)، والثانية (البعث)، والخامسة (المأساة)، والسابعة (أغنية الليل)، أما التاسعة فقد سمَّاها (سيمفونية للتينور والألتو والأوركسترا) تطَيُّراً من لعنة الرقم 9التي أودت بحياة المؤلفين الموسيقيين: بيتهوفن، ولوي سبور، وبروكنر، وشوبرت.

في وقتنا الحاضر يتم تقييم الأوركسترات العالمية وفقاً لقدرتها على تقديم أعمال مالر الموسيقية، نظراً إلى تعقيداتها التقنية، وطرائقها الأسلوبية النافرة، وخصائصها الشكلانية الجديدة، وصعوبة تنفيذها، لكن مالر وحده كان يلجأ إلى هذه الموسيقى لبث النواح، والألم، والخيبة، والخوف، والحزن الذي يعتصر روحه المتشظية في عالم مرعب.

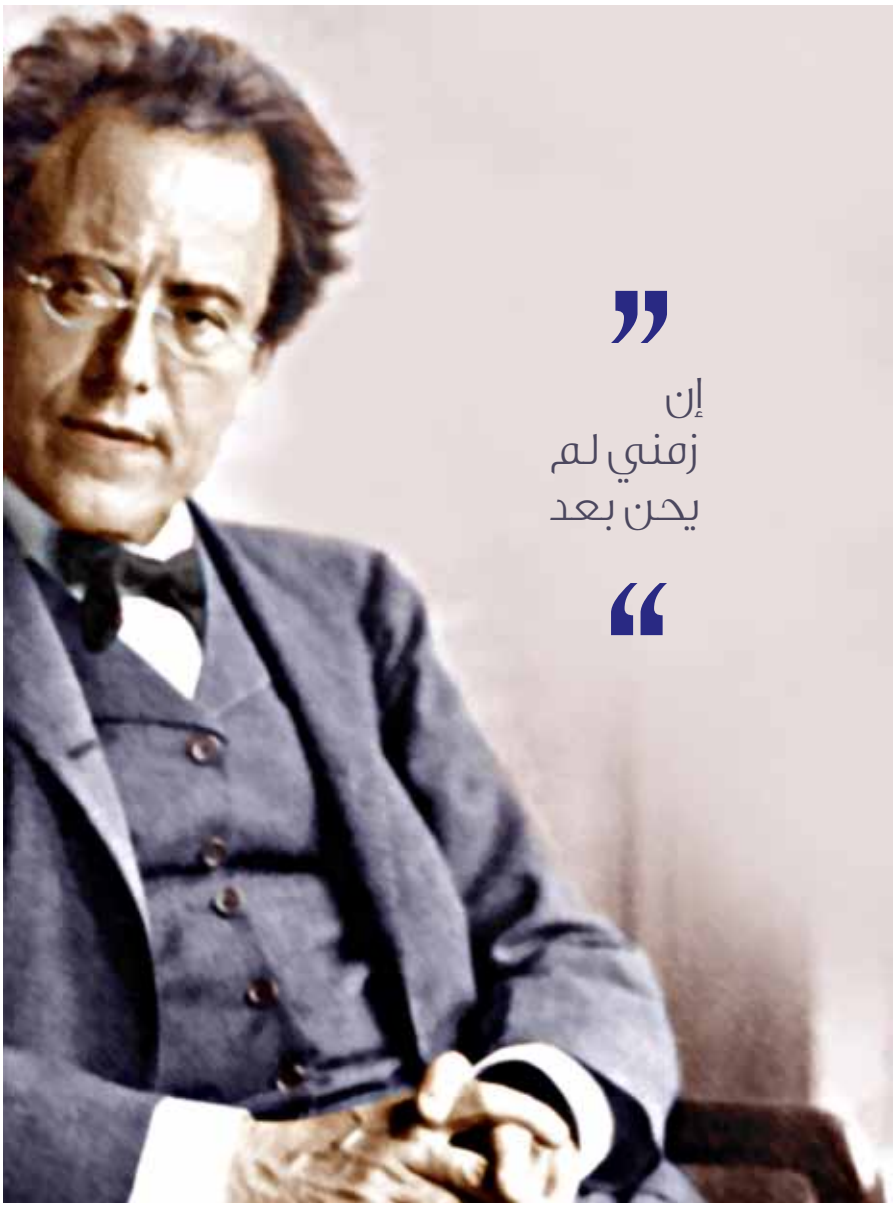
إن
زمني لم
يحن بعد

عندما يُتوَّج الحلم

د. نبيلة زياري

كان هناك قوس قُزح
يتوِّج حلمي..
كانت هناكَ أنشودة
تترنم للأصيلِ فوق حريرِ الموجِ..
وترقص مع سرمديةِ البرتقاليّ.. أمامي..!
كان هناكَ قمر
يتباهى بضوئِه على ثوبِ الليل..
ويُرسِل للعشاقِ رسائلَ
تتقاطر نوراً في أيديهِم..
وفي يدي..!
كانت هناك نخيلٌ
تلوّح بالسعفِ وتهمس بالحفيفِ
للمحبين... و.. لي !
كانت هناك عصافير..
كانت هناك نجيمات..
كانت هناك أزاهير..
كانت هناك أغنيات..
كان هناك كل ذاك
كل ذاك.. عندما كان قلبُكَ
معي..!!

فاطمة تعيش الحلم

محمد علي عباس

ألقت فاطمة بناظريها عبر النافذة إلى الطريق.. من وراء الستار نصف الشفاف رأت زفة العروسين.. نوال عيناها تقولان إنها هائمة في سمائها، تعيش واقعاً كان حتى الأمس حلماً، تعيشه وتتشربه حتى الثمالة ولا تشبع منه، وها هي البلدة كلها تعيش فرحها، تنطلق الزغاريد وتعلو الضحكات ويستمر الغناء مدوياً محيطاً بالعروسين.

أما هي فتقبع هنا في حجرتها، من وراء الستار تتابع الموكب، الخيل ترقص وسط الساحة، التصفيق يعلو، صوت الطبول يدور، يعقبه بين الحين والآخر طلق ناري يهز قلب الليل.

تترك النافذة الى الداخل.. من خلف الباب الموروب تلمح النسوة يملأن صحن الدار، يرسمن بأجسادهن دائرة تتوسطها إحدى الفتيات، الفتاة حزمت وسطها بمنديل رأس أبيض ذي نقط سوداء ، اندمجت في الرقص على أنغام طبلة تدقها بمهارة فتاة أخرى، بينما ثالثة ترفع صوتها بالغناء والكل يردد خلفها ما تقول. وسط الحجرة تقف فاطمة محاصرة من الباب والنافذة، مقيدة بدموعها، تمسك بمنديل أصفر تمسح به وجهها، ترمق الباب الموروب بحذر خشية أن تدخل إحداهن عليها وترى ما بها، تبتعد عن مرمى النظر عبر النافذة حتى لا تخترقها عين متلصصة، وفي الوقت ذاته تخشى الخروج حتى لا تفضحها قسماتها الناضحة بما تطويه في صدرها، تقف شاعرة أن الألم حينما نكتمه في صدورنا يكون ناراً تنهش، عواصف تضرب، ورياحاً لا ترحم، تتساءل كيف تواجه الأعين بالخارج، ومن أين تأتي بابتسامة تلقاهم بها؟

طال الوقت وهي على وقفتها، فكرت في الخروج من جديد لمتابعة الفرح، مدت يداً واجفة تمسح بها الدموع من فوق شقوق وقسمات وجهها الذي يَبُس من الخروج فجر كل يوم إلى الطريق، حيث لسّع الهواء وسياط البرد والظلمة التي تسير معها، لا تسمع إلا نباح الكلاب تشيعها إلى محطة السكة الحديد، بحملها من الجبن والزبد والبيض لتركب القطار ماضية إلى المدينة، حيث السوق ومعارك لقمة العيش .

مضت إلى المرآة المشقوقة من منتصفها في واجهة الدولاب القديم تحدق فيها، رأت وجهها مشقوقًا نصفين؛ نصف تحوم حوله الظلمة، تلبس عينه لباس الهموم والشقاء اليومى، وحمل ثقل أسرة بكاملها تركها عائلها ومضى، لتقوم -هي الإبنة الكبرى- مكانه من دون أن يخطر على بالها أن من حقها أن تعيش الحلم ولو لحظات، تنسى الدراسة التي كانت تدرسها فى مدرسة القرية، وتفوقها، ونظرة المعلمين والمعلمات إليها، وتنبُّئهن بمستقبل ينتظرها، ولا ترى إلا أم محمد جارتهم وعملها في سوق المدينة، واقتراحها أن تنضم إليها ليستمر البيت مفتوحاً، حاولت الإعتراض والرفض، صدمتها أمواج الحقيقة العاتية بعنفوانها، والبيت الخالي إلا من أنفاس إخوة ينتظرون الطعام اليوم وليس غداً.. بينما تبدو العين الأخرى والمواجهة للنافذة في بهاء النور تحلم وترجو كما تشاء وهي ترى نوال تتزوج.. نوال الصغيرة التي تركها أبوها طفلة تجري في حواري القرية وبين الغيطان لا تدري من أمرها شيئًا، نوال التي كانت تهرول نحوها وهي قادمة من السكة الحديد تحتضن ساقيها وتسألها عما أتت به من حلوى.!

تتنهد فاطمة في شرود.. الآن تسكن وحدها تلك الحجرة مع الليل والظلمة والعمر الذي يذوي أمام عينيها، وتجف أوراقه في سكون كأنه يعرف قدره ويرضى به ولا ينتظر من الحياة غيره ، ماذا لو تقدم لها حمدان بائع الخضر في السوق؟ هو مثلها فرع شارد يضرب في الحياة وحده بغير جذور، ترك دراسته هو أيضا من أجل لقمة العيش، عمل بنقل الخضر بعض الوقت قبل أن ينضم إلى زمرة البائعين.. عينه عليها منذ رآها لأول مرة.. هل تحادثه؟.. لمَ لا؟ هو رجل حقيقى وسيقدِّر لها هذا.. المرأة الشريفة تختار لنفسها.. هكذا فعلت السيدة خديجة.. مادام الرجل يستحق ويفهم ويقدر ما فعلته.. هزت رأسها رفضًا وهي تتمتم لا.. لا.. منذ متى في عُرفنا طلبت المرأة الرجل؟ لو حدث هذا لن يصدقها، وربما ظن بها الظنون.. حتى إن لم يحدث هذا لن ينظر إليها بذات نظرته إلى امرأة سعى هو إليها وبذل جهده لينال رضاها. لن تحادثه أبدًا، أبدًا. واستدارت إلى الخلف، كان قلبها في معركته داخل صدرها يلهث مواصلاً الأنين خلف دموعها، همست لنفسها في حزم ليس اليوم يا فاطمة، الأعين المتلصصة وخاصة اليوم لن تتركك، مؤكد غيابك سوف يثير الانتباه، الكلمات سوف تتأجج نارًا.. ثم إن المدعوين جاءوا لأجلك أنت، الفرح فرحك.. أنسيت؟.. فرحي!! تهمس الكلمة، تهتز لها، تراها تتردد في أعماقها وصداها يضرب جدران صدرها، تهز رأسها بقوة وهي تهمس للفراغ بل هو فرح نوال.. تنتفض على صوت مدوٍّ ينطق باسمها من خلف النافذة ، تنصت إلى حروفه الزاعقة وجلة.. تمسح وجهها وعينيها بسرعة، تحاول تمالك صوتها وهي تقترب من الستار نصف الشفاف ملبية: - مَنْ؟

ضيوف.

ترفع الستار، يملأ النور جليًّا واضحًا الحجرة، تبحث بعينها في الفضاء الممتد أمامها، يواجهها جسد فارع الطول يكسوه جلباب صوفي أزرق، تعلوه ناصية عريضة تزيِّنها عمامة ناصعة البياض، وعينان نظراتهما نفاذة تحدقان في عينيها بذات النظرة التي تعرفها.. تترك عينيها أسيرتين لعينيه قليلا قبل أن تسمع صوته يعلو مرفرفًا بجناحيه بقوة في وجهها: -

سترحبين بضيفك من الشباك؟

من؟

تساءلت وهي تشعر بعجزها عن ملاحقة دقات قلبها وهرولته في فضاء صدرها، وتخشى أن تطغى دقاته على صوت الطبل والمزامير وطلقات النار، ذلك القلب الذي كان منذ برهة واحدة ينزف أنينه تبدل حاله في لحظة وعرف معنى الفرح، حاولت مداراة انهمار مشاعرها والتحكم فيها لتمضي على مهلٍ، لم يسعفها الوقت لهذا، ضحكت عيناها.. شفتاها.. جوارحها.. وهي تراه حقيقة أمامها.. تلقفت عيناها نظراته.. احتضنت نظراتها عينيه.. نطقت حروف اسمه كما لم تنطقها من قبل: -

حمدان!!

انتفضت لسماع أصوات بعض النسوة وقد اقتحمن الحجرة فجأة يسألنها ما بك يا فاطمة؟ حدقت فى أعينهن شاردة قبل أن تستدير إلى النافذة من جديد باحثة عنه.

معالي الشيخ خالد بن عبد الله

يرعى حفل تكريم الفائزين بجائزة يوسف بن أحمد كانو للدورة الثامنة

مبارك سعد العطوي

أقيم بمركز الخليج للمؤتمرات في فندق الخليج حفل تكريم الفائزين بالدورة الثامنة لجائزة يوسف بن أحمد كانو، تحت رعاية معالي نائب رئيس مجلس الوزراء، الشيخ خالد بن عبدالله آل خليفة، والذي أكّد أن مبادرات العائلات البحرينية المتجسدة في إسهاماتها الخيرية في مختلف المجالات تعكس ما تتحلى به الروح الأصيلة لمكونات هذا الشعب المحب للبذل، والذي لا تحد عطاءه أي حدود في سبيل نشر قيم العلم وتكريم أهله وتقدير المميزين المبدعين من سائر أرجاء الوطن العربي، والذي يؤكّد الدور الريادي بما تضطلع به هذه العائلة في المجتمع منذ حوالي 125 عاماً.

لقطة جماعية للفائزين مع كبار المسؤلين وراعي الحفل

وقال معاليه: «إننا إذْ نحتفي هذه الليلة بجائزة يوسف بن أحمد كانو الذي يعد أحد المؤسسين الأوائل لهذه العائلة الكريمة، حَريٌّ بنا أن نستذكر بكل تقدير ما شيدته عائلة كانو من صروح ومرافق حيوية يشار إليها بالبنان، ولا تزال تحمل اسم مؤسسيها من أبناء هذه العائلة رجالاً ونساء، كالمساجد والجوامع والمدارس والمراكز الصحية وقاعات المناسبات، وذلك إيماناً منها بأهمية الدور المكمل للجهود الحثيثة التي تبذلها الحكومة الموقرة في توفير بنية تحتية قوية وراسخة ينعم بخدماتها الجميع».

من جانبه، توجه سعادة رئيس مجلس أمناء جائزة يوسف بن أحمد كانو، السيد خالد بن محمد كانو، بجزيل الشكر والثناء إلى معالي الشيخ خالد بن عبدالله آل خليفة على رعايته الكريمة ودعمه المستمر لهذه الجائزة والقائمين عليها.

وقال في كلمة ألقاها خلال حفل الافتتاح: «تؤمن عائلة كانو إيماناً عميقاً بأن العلم وتكريم العلماء هما نبراس طريق النهضة والتقدم. ومن هذا المنطلق، تم تأسيس جائزة يوسف بن أحمد كانو لتشجيع المبدعين والباحثين العرب للمساهمة في الارتقاء والتطور في البناء العلمي والثقافي لأمة العرب، وكذلك المساهمة في الجهود الطيبة التي تقوم بها مملكة البحرين. ومن هنا فقد تم منح هذه الجائزة منذ انطلاقتها الأولى في عام 2001 إلى 21 فائزاً يمثلون سبع دول عربية وهي البحرين والسعودية ومصر والعراق والجزائر وفلسطين والسودان».

وأوضح سعادته أن مملكة البحرين تعيش نهضة علمية وثقافية يرعاها حضرة صاحب الجلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة، عاهل البلاد المفدى، ويتابع تقدمها ومسيرتها صاحب

الشيخ خالد بن عبد الله آل خليفة

السيد خالد بن محمد كانو

معالي الشيخ خالد بن عبدالله راعي الحفل يكرم السيد عبدالعزيز جاسم كانو

السيد علي بن صالح الصالح

د. سعيد بن عطية أبو عالي

السمو الملكي الأمير خليفة بن سلمان آل خليفة، رئيس الوزراء الموقر، وصاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن حمد آل خليفة، ولي العهد نائب القائد الأعلى النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء.

وانطلاقاً من المساعي الدائمة للارتقاء بأعمال الجائزة، أعلن سعادة السيد خالد كانو أن مجلس الأمناء قد أقر رؤية جديدة للمرحلة المقبلة تتمثل في التطويرات التي ستشهدها مجالات المشاركة في الجائزة لتشمل الدراسات الإسلامية، والابتكار والتقنية، والشباب وريادة الأعمال، والاقتصاد والتنمية، والرياضة واللياقة، وذلك وفق آلية جديدة ومحددة. كما أعلن سعادته عن إطلاق جوائز تشجيعية للإبداع الشبابي تتمثل في طرح ثلاث جوائز تخصصية متنوعة كل أربعة شهور بقيمة 10 آلاف دولار أمريكي لكل جائزة تخصص للإنجازات والمشروعات الرائدة.

تلا ذلك، كلمة ألقاها ضيف شرف الحفل معالي رئيس مجلس الشورى، السيد علي بن صالح الصالح، قال فيها: «يعبر إنشاء جائزة يوسف بن أحمد كانو عن الاهتمام بما تواجهه الثقافة العربية من تحديات سياسية واجتماعية وثقافية عميقة، وأن الثقافة بتجلياتها المعرفية والإبداعية هي الأساس لأي مشروع نهضوي عربي، كما أن الثقافات في المنطقة العربية تدرك أهمية الانفتاح على قيم التقدم الإنساني، وتتماشى بإيجابية مع ثقافات الضفاف الأخرى، وبهذا لا يمكن العثور على حضن أفضل من الثقافة للتعايش بين البشر».

كما أعرب معاليه عن تقديره لإسهامات القطاع الخاص في مسيرة التنمية العلمية والثقافية بالمملكة، ودوره في تعزيز روابط التعاون الإيجابي في عالمنا العربي، متوجهاً بالشكر كذلك إلى عائلة كانو على إطلاق هذه الجائزة ورعايتها،

معرباً في الوقت نفسه عن فخره واعتزازه بهذه الجهود، لكونها تتلاقى مع النهضة العلمية والثقافية التي تشهدها المملكة بفضل الرعاية المباشرة من القيادة الحكيمة.

بعدها، أعلن رئيس لجنة التنسيق والاختيار، الدكتور سعيد بن عطية أبو عالي، أسماء الفائزين بجائزة يوسف بن أحمد كانو، حيث أسفرت النتيجة عن فوز أستاذ النقد الأدبي والبلاغة المساعد بجامعة أم القرى، الدكتور محمد مشرف يوسف خضر، من جمهورية مصر العربية، بجائزة مجال الدراسات الإسلامية وقيمتها 50 ألف دولار أمريكي، وذلك عن بحثه «نهضة شعوب الأمة العربية – مبادئ ورؤى».

في حين فاز بجائزة مجال المال والاقتصاد وقيمتها 50 ألف دولار أمريكي، أستاذ العلوم التجارية المساعد بجامعة سطيف في الجزائر، الدكتور فيصل الطاهر شياد، وذلك عن بحثه «واقع البورصات العربية بين التحدي والمنافسة».

أما في مجال الطب، فقد فاز بالجائزة مناصفة كل من اختصاصي الأشعة التشخيصية، الدكتور بهاء محمد السيد محسوب، واختصاصية الروماتيزم والطب الطبيعي والتأهيل، الدكتورة أميرة محمد بنداري علي، وكلاهما من جمهورية مصر العربية، عن بحثيهما الموسوم بـ «الجراحة العظمية – ترميم المفاصل»، وذلك بمنح كل منهما مبلغاً وقدره 25 ألف دولار أمريكي.

قام بعدها معالي راعي الحفل بتكريم الوجيه عبدالعزيز جاسم كانو رئيس مجلس الأمناء السابق تقديراً لدوره وعطاءاته وإسهاماته وجهوده لتأسيس هذه الجائزة والارتقاء بها وبدورها ومسيرتها.

كما تم تكريم معالي الأستاذ علي بن صالح الصالح رئيس مجلس الشورى وضيف شرف الاحتفال تقديراً لمشاركته وحضوره الاحتفال.

تكريم الفائزين في مجال الطب

تكريم الفائز بجائزة مجال الدراسات الإسلامية

تكريم الفائز بجائزة مجال المال والإقتصاد

السيد خالد محمد كانو يكرم معالي الاستاذ علي صالح الصالح ضيف شرف الإحتفال

وتم تكريم عضو مجلس الأمنـاء الدكتور سعيد بن عطية أبو عالي واحد المؤسسين للجائزة تقديراً لجهوده وإسهاماته في مسيرة الجـائزة وبمناسبة رغبته للتفرغ لأعمـاله ومشروعاته الخاصة وقد أشاد الجميع بعطاءه وإسهاماته طوال فترة عمله بالجائزة.

وقد أعرب المكرمين عن شكركم وتقديرهم لعائلة كانو ورئيس وأعضاء مجلس الأمناء على تكريمهم وعلى العناية التي حظوا بها من الدعم والتقدير من أجل الإرتقاء بهذه الرسالة الثقافية والإنسانية وتحقيق الأهـداف التي من أجلها تم إنشـاء هذه الجائزة. وآملين للجائزة المزيد من التطور والنماء والازدهار.

بعـدها قـام رئيس مجلس الأمناء السيد خالد محمد كانو بتكريم معالي الشيخ خالد بن عبدالله آل خليفة نائب رئيس مجلس الـوزراء على رعايته ومشاركته الإيجابية والتي أضافت إلـى الاحتفال الكثير من البهجة والتميز.

وبهذه المناسبة أيضاً، أعرب الفائزون المكرَّمون

رئيس مجلس الأمناء يستقبل راعي الحفل

عن شكرهم للبحرين –ملكاً وحكومة وشعباً– على ما تنتهجه المملكة من نهج حسن في تشجيع العلم والحث على النهل من منابعه، ولعائلة كانو لاحتضانها هذه التظاهرة العلمية والثقافية الرائدة على مستوى الوطن العربي.

في إحتفالية خاصة

جائزة يوسف بن أحمد كانو
تودع الدكتور سعيد بن عطية أبو عالي

أقيم ضمن برنامج الجائزة التكريمي حفلُ وداعٍ للعضو المؤسس لمجلس الأمناء الدكتور سعيد بن عطية أبو عالي بمناسبة قراره بالتفرغ لأعماله الفكرية والخاصة؛ حيث أُقيم الاحتفال تحت رعاية الوجيه مبارك بن جاسم كانو رئيس مجلس إدارة مجموعة يوسف بن أحمد كانو والوجيه عبدالعزيز بن جاسم كانو نائب رئيس المجموعة وبحضور السيد خالد محمد كانو رئيس مجلس الأمناء وأعضاء مجلس الأمناء وعدد من المدعوين من الوجهاء والمفكرين وأصدقاء العائلة

لقطة لمجموعة من المشاركين في حفل توديع الدكتور سعيد أبو عالي

السيد خالد محمد كانو

الدكتور عبداللطيف جاسم

حيث بدأ الحفل بكلمة من السيد خالد محمد كانو رئيس مجلس الأمناء، أعرب فيها عن سعادته بالدور المميّز والإسهامات الكثيرة للدكتور سعيد أبو عالي طوال فترة عضويته بالمجلس، ومساعيه للارتقاء بأعمال الجائزة وبرامجها وفعالياتها. كما أثنى على عطائه وجهوده في بناء جسور التعاون مع المؤسسات والشخصيات الثقافية في الخليج والوطن العربي، كما أكّد التوجهات والرؤية الجديدة التي وضعها المجلس للانتقال بكل ديناميكية وفق النهج والاستراتيجية اللذين تتطلبهما المرحلة القادمة.

كما تحدث الدكتور عبداللطيف جاسم كانو نائب رئيس المجلس، وعبر عن سعادته بالعمل مع الدكتور سعيد، وكيف أضافت هذه التجربة من زيادة الإسهام في بناء المسارات ومجالات المعرفة والأنشطة والفعاليات وجميع المجالات الأخرى. وأثنى على جهوده في دعم أعمال الجائزة وانتشارها وأسلوب العمل الأخوي والمهني طوال هذه المرحلة والتي تقدر بحوالي (17) عاماً. وأكّد ضرورة استمراره في التواصل مع الجائزة وأعمالها وعدم الانقطاع عنها، وتمنى له كل التوفيق في توجهاته الجديدة وأعماله الفكرية والأدبية.

بعدها ألقى الأستاذ مبارك سعد العطوي، عضو مجلس الأمناء، كلمة عبَّر فيها عن سعادته وشكره للرحلة المهنية الطويلة التي قضاها مع الدكتور سعيد صديقاً ومساعداً ومعلماً وأخاً كريمًا؛ حيث التجربة مليئة بالفعاليات والأعمال الثقافية والتنظيمية والجهود المستمرة لمواكبة كل التطورات لكي تصبح هذه الجائزة رائدةً في سماء البحرين والوطن العربي نوعاً ومضموناً بما يشكل الريادة والتألق لجميع أعمالها وأنشطتها.

وأثنى على تعاون الدكتور سعيد وقيادته لجهد المجموعة، التي

لقطة تذكارية للدكتور سعيد ابو عالي مع عائلة كانو وعدد من المدعوين

السيد حالد محمد كانو يكريم د. سعيد ابو عالي

الأستاذ مبارك سعد العطوي

الدكتور سعيد أبو عالي

كانت صحبة مميزة.. وتمنى له ولأسرته كل التوفيق والمزيد من العطاء الأدبـي والفكري بما يشكله من مضمون عربي وفكري منثور جميل.

وبعدها تحدث الدكتور سعيد أبو عالي بكلمة أوضح فيها تجربته مع الجائزة، وسعادته بكل الإنجازات والنجاحاتً التي تحققت، وأعرب عن تقديره لجميع أفراد عائلة كانو على الحفاوة والتقدير والرعاية، والاهتمام الذي حظي به طوال سنوات العمل مع الجائزة، وأكّد أنه كان يشارك إخوانه أعضاء مجلس الأمناء برئاسة الأخ الوجيه عبدالعزيز كانو الذي قدم له الدعم والثقة للسير بأعمال الجائزة ومساعدته في تحقيق كثيرٍ من النجاحات لها.

وقدَّم شكره وامتنانه إلى عائلة كانو ومجلس الأمناء لإقامة هذا الحفل وتكريمه والذي كان يشكل لفتة طيبة وتقديرا كريما من عائلة كانو، وتمنى للسيد خالد محمد كانو رئيس مجلس الأمناء الجديد كل التوفيق والنجاح والمزيد من التطور والازدهار لأعمال الجائزة.

تشكيل مجلس أمناء جديد للجائزة

أعلن السيد خالد محمد كانو رئيس مجلس أمناء جائزة يوسف بن أحمد كانو التشكيل الجديد لمجلس الأمناء لهذه الدورة؛ حيث يضم المجلس كلاً من السادة:

السيد خالد محمد كانو

د.عبداللطيف جاسم كانو

السيد هشام محمد الجودر

د. خالد عبدالرحمن العوهلي

السيد علي عبد العزيز كانو

السيدة منى مبارك كانو

د.إبراهيم جمال الهاشمي

د. ناظم صالح الصالح

السيد مبارك سعد العطوي

وقد هنَّأ السيد خالد محمد كانو (رئيس المجلس) الأعضاء بمناسبة التشكيل الجديد، وأعرب عن سعادته بالعمل مع هذه النخبة من الأعضاء التي تتمتع بالمكانة العلمية والعلاقات الاجتماعية والخبرة الواسعة في مختلف المجالات والتخصصات في الثقافة والمعرفة، مرحباً بجميع الأعضاء ومتطلعاً بكل سرور إلى إسهاماتهم الإيجابية بكل فعالية من أجل الارتقاء بالجائزة ودعم فعالياتها وبرامجها العلمية والإنسانية والثقافية في مملكة البحرين والوطن العربي.

كما قدَّم في ختام تصريحه خالص التقدير والعرفان إلى سعادة الوجيه عبدالعزيز بن جاسم كانو رئيس المجلس السابق، على جهوده وإسهاماته وتوجيهاته وعطاءاته التي أوصلت هذه الجائزة إلى هذه المكانة والمستوى العربي والإقليمي المتميز، آملاً الاستمرار على هذا النهج الحكيم والسعي مع إخوانه أعضاء مجلس الأمناء إلى تبني الرؤية والاستراتيجية الجديدة للدفع بالجائزة نحو أفق أرحب في مجالات المعرفة والعلوم بشيء من التنافسية والتحفيز لأبناء البحرين والوطن العربي.

كانو الثقافية
مجلة ثقافية نصف سنوية - تصدرها جائزة يوسف بن أحمد كانو